التدخل العثماني في اليمن
١٣٤٤هـ - ١٣٩٨هـ
١٩٢٤م - ١٩٧٨م

د. محمد عيسى صالحية *

ظلت اليمن من سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وهي السنة التي احتلت فيها الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر ، وحتى سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٩م ، بعيدة عن الاستراتيجية العثمانية ، وذلك لبعدهـــا عن مركز الدولة ، ممـــا قد تتعسر معه الامدادات العسكرية والتموين اذا ما وجدت نفسها متورطة في المنطقة في وقت مبكر ، ولما تعد للامر عدته . ثم ان انشغال العثمانيين في جبهات قتالية اخرى ، سواء في مصر او بلاد الشام او اوروبا ، فرض عليهم التروي في البدء بتنفيذ خططهم في البحر الاحمر والمحيط ، ولذا بدت محاولاتهم الاولى لفرض سيطرتهم على اليمن ضعيفة، اقتصرت على بعض الامدادات العسكرية التي قدموها للمماليك في اليمن ، في محاولة التوالي التصدي للوجود البرتغالي ، الذي كاد يصبح حقيقة ملموسة ، تهدد المصالح العربية الاسلامية التجارية وبخاصة مع الهند ، مصدر التوابل والعاج والفراء وغيرها .

غير ان امتداد الدولة العثمانية الى مصر ، وقضاءهم على دولة المماليك ، وحاجتهم الملحة للبحر الاحمر والمحيط ، لتيسير الاتصال مع الهند نبهتهم الى خطورة الوجود البرتغالي في المنطقة ، حماية لحدودهم الجنوبية لا سيما وان القوات البرتغالية قد حققت نجاحا عظيما في البحر الاحمر والمحيط الهندي(١) ، بعد أن وصلت الى الهند ، ومن ثم حاصرت السفن العربية الاسلامية ومنعتها من الوصول الى مصدر تجارتها ، وعاثت في الموانيء العربية تخريبا واحراقا وكما اقامت الحصون ، واحكمت اغلاق المنافذ الرئيسية في الخليـــج العربي

---

* استاذ التاريخ المساعد بجامعة الكويت . عمل مدرسا للتاريخ بجامعة بنغازي حتى عام ١٩٧٧ . حصل على الدكتوراة من جامعة عين شمس سنة ١٩٧٣ .

من مؤلفاته :

— **العثمانيون في جنوب الجزيرة العربية ١٤٩٤ — ١٦٢٠** . جامعة بنغازي . ١٩٧٧ .

— **مخطوطة المؤرخ اليمني عيسى بن لطف الله روح الروح** . تحقيق ودراسة .

باستيلائها على جزيرة هرمز وام قثم ، ومن ثم سيطرت على جزيرة بريم ، احكاما لخطتها في اغلاق باب المندب ، المنفذ الآخر الى الهند .

وليس معني هذا ، ان العثمانيين لم يكن لهم اى وجود في الجنوب ، فقد اعترف مماليك اليمن بخضوعهم للدولة العثمانية ، منذ ان وصلتهم الانباء بشنق آخر سلاطينهم طومنباى على باب زويلة سنة ١٥١٧م ، ولكنه كان اعترافا اسميا ، قصد منه الحفاظ على مركزهم في اليمن لان بقاءهم في سدة الحكم ، سيحول دون الانقضاض عليهم من قبل الاهالي ، الذين يتحينون الفرص بهم ، انتقاما وعقابا لممارساتهم الخاطئة بحقهم ، اذ اشتغل مماليك اليمن في آخر عهدهم باعمال السلب والنهب وظلم الرعية ، ومع ذلك ، فقد حافظ المماليك بهذا الاعتراف الاسمي على كيانهم الخاص(٢) .

غير ان العثمانيين ادركوا وهن الخيط الذي يربطهم بأتباعهم في اليمن ، وذلك عندما اصدر خاير بك ، نائب مصر ، امره الى نائب جدة ، حسين الكردي سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م بالعمل على ضم ولاية السواحل اليمنية الى ولايته في جدة (٣) ، فتقدم الاخير نحو ميناء البقعة ، المقابل لزبيد ، املا بتنفيذ خطته بسرعة ، اعتمادا على الاعتراف المسبق من والي السواحل اليمنية بالتبعية العثمانية ، غير انه فوجيء بمقاومة عنيفة من الاسكندر المخضرم ، الوالي المملوكي الاصل ، فأسقط في يد حسين الكردي ، وبدت قواته غير قادرة على انجاز خطتها ، فمال الى السلم ، عله يلم شتات قواته ، ولما نجح في ذلك ، اسرع عائدا الى مركز ولايته في جدة ، مع انه اشاع بان وصول امدادات برتغالية جديدة الى البحر الاحمر جعلته يتخلى مؤقتا عن فكرة ضم السواحل اليمنية اليه ، ويتعجل العودة الى جدة ، لينظم الدفاع عنها ، فيما لو فكر البرتغاليون باحتلالها(٤) .

ومع تقديرنا للسبب الذي تذرع به حسين الكردي من اجل العودة ، الا ان مجريات الاحداث ، تضعف دعواه ، اذ لم يشتغل لدى عودته بتحصين البلد كما لم يعمل على شحن حصونه بالماء والطعام والعتاد ، ولم يطلب الى السلطان ارسال الحملات اليه ، فبقيت مقاومة اسكندر المخضرم له ، اقوى الاسباب واكثرها واقعية ، ولعل هذا السبب هو الذي جعل السلطان سليم الاول يأمر بارسال حملة اخرى بقيادة سليمان الريس ، تعمل بالتعاون والتنسيق مع حسين الكردي ، لضم اليمن جميعه الى املاك الدولة العثمانية ، ولعل الدولة العثمانية ارادت بذلك ان تتجاوز فشلها في تحقيق الهدف المحدود بضم ولاية السواحل اليمنية ، فتعمل على احتلال اليمن جميعه ، لتحفظ للدولة هيبتها وللسلطنة عزتها .

لقد كان باستطاعة مماليك اليمن ، ان يتصدوا للحملة العثمانية الجديدة لو انهم احسنوا تنسيق مواقفهم ، وشكلوا جبهة موحدة ، يمنية ــ مملوكية غير ان المنازعات حول السلطة زادت من حدة خلافاتهم ، فقد قتل كمال الرومي الامير المملوكي اسكندر المخضرم ، طمعا في منصبه ، ولما ثار الجند عليه ، وهرب من المنطقة ، تولى اسكندر القرماني ، نيابة زبيد ، بدلا منه(٥) .

وعلى الاثر تقدمت قــوات الدولة العثمانية ، بقيادة حسين الكردي ، وسليمان الريس نحو ولاية السواحل اليمنية ، وهدفها ضم اليمن الى املاك الدولة العثمانية . وقد ادرك اسكندر القرماني استحالة تصديه للقوات العثمانية فلجأ الى الحيلة ، حيث اتصل سرا بحسين الكردي ، وابدى استعداده للتسليم له فقط ، دون سليمان الريس ، وكان هدفه من ذلك خلق الشقاق بين القائدين ، اللذين يحرص كل منهما على ان يقرن فتح اليمن باسمه، فينال رضى السلطان اولا، وتتاح لــه الفرصة لملء جيوبه بالاموال والنفائس التي ستقدم اليه علــى سبيل الهدية تقربا اليه من الاهالي(٦) ، ثم انه سيكون صاحب الامر الاول في مصادرة اعدائه واستصفاء اموال اعدائه المماليك لصالحه ، واخيرا تحقق رغبته لدى السلطان ، فينقل الى ولاية مصر الجدير بادارتها بعد نجاحه في اليمن.

ويبدو ان سليمان الريس قد عرف خطة منافسه ، فأسرع بالانفصال عنه وشكل جبهة من قبائل يافع المعروفة بقوتها ، وقبائل المهرة ، والامير عزالدين ابــن دريــب ، امير جازان ، ودعــا المتحالفــين لمحاصرة زبيد ، المعقل الاخير لاسكندر القرماني ، وقد تم له ما اراد ، غير ان سليمان الريس آثر الانفراد بالغنائم فدخل زبيد وحده ، بعد ان اقنع امير جازان بالبقاء خارج المدينة حماية لظهورهم ، ووعده بنصيب من الغنائم ، ولكنه تنكر لوعوده ، فوقعت الحرب بين الطرفين ، فانتهز حسين الكردي الفرصة ، ودخل زبيد بعد ان أمن اهلها ونشر العدل بينهم ، فاحبوه والتفوا حوله(٧) .

وفي راينا ان حسين الكردي ، كان يرمي من وراء هذه المعاملة ضمان ولاء اهل زبيد ، اذ يعــرف حقيقة نوايا سليمــان الريس ورغبته في الانفراد بالسلطة .

ان تسارع الاحداث بهذا الشكل ، وعدم نجاح العثمانيين في الوصول الفعلي الى اليمن ، لفت نظر سلاطين العثمانيين الى اهمية البحر الاحمر والمحيط الهندي بشكل عام ، واليمن بوجه خاص ، فأمر السلطان سليم باعداد حملــة مركزية لمهاجمة البرتغاليين في الهند ، ولكنه توفي قبل اتمام الحملة ، فاتمها سليمان القانوني(٨) .

ونحن نرى ان الدولة العثمانية كان يحزنها الا تنجح في تحقيق اهداف محدودة في اليمن ، وهي التي ضربت اسوار فينا ، وصاقب نفوذها الصفويين ، فعالجت اخفاقها بتوسيع اهداف حملاتها ، اذ كانت تبغي ضم ولاية السواحل اليمنية ولما فشلت طلبت اليمن جميعه ، وحيث انها اخفقت مرة اخرى طلبت الهند والقوات البرتغالية .

ولعلنا لا ننكر على السلطان العثماني دعواه بان يكون « حامي الحرمين الشرفين » غير ان هذه الدعوة كان يشينها ، ان يمتنع قطر فقير كاليمن مثلا عن الانضواء السريع تحت لوائه .

أمر السلطان سليمان باكمال بناء الاسطول في السويس ، ليكون جاهزا للعمل ضد البرتغاليين عندما يطلب اليه ذلك ، وعمل على تدعيم الوجود العثماني في ميناء جدة سنة ٩٢٥هـ ، حيث ارسل ثلاثمئة جندي مملوكي وتركماني ، استجابة لطلب شريف مكة ، بركات بن موسى ، لمشاغلة البرتغاليين ، اذا ما حاولوا الاستيلاء على جدة ، باعتبارها مفتاح الطريق الى الحجاز(٩) .

ومن ناحية اخرى ، لاقى تأليب سليمان الريس لنائب مصر ضد حسين الكردي آذانا صاغية لدى السلطان ، والقيت تبعة الفشل العثماني على كاهل حسين الكردي .

كانت عودة سليمان الريس الى مصر سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م ، بداية لمرحلة جديدة من اهتمام الدولة العثمانية بالصراع الدائر في البحر الاحمر واليمن ، وقد باشر العثمانيون فور عودة سليمان الريس ، ارسال حملة عثمانية ، توامها عشرون سفينة الى جنوب البحر الاحمر(١٠) ، مهمتها اخضاع السواحل اليمنية للسيادة العثمانية .

وكان السلطان سليمان قد عين سليمان الريس قائدا للحملة التي ارسلت الى هناك سنة ٩٣٢هـ/٥ــ١٥٢٦م ، وقد ابدى استعداده للعمل في اليمن ، وضد البرتغاليين ، على ان يتلافى الاخطاء التي وقع بها سابقا ، ووصلت الحملة الى ميناء جدة في رمضان سنة ٩٣٢هـ/يونية ــ يوليو سنة ١٥٢٦م ، ومنها تقدمت نحو السواحل اليمنية ، واثناء ذلك توفي حسين الكردي ، وعين بدلا منه في زبيد بتأييد الجنود ، مصطفى الرومي (١١) ، وكان قد مل طول الحروب ، ومال الى السلم وطلبه ، غير ان سليم الريس ، اشترط عليه تسليم نفسه ، وان يقبل الرحيل الى القاهرة ، لكن مصطفى الرومي رفض هذه الشروط المذلة ، وحاربه الا انه هزم ، وحقق سليمان الريس نصرا آخر على قائد الحملة العثمانية خير الدين حمزة الذي تحالف مع علي بك القرماني ، ذلك ان خير الدين حمزة

هرب الى بيت الفقيه اثر هزيمته من قبل سليمان الريس والتقى هناك بعلي بك القرماني الذي سار الى زبيد يريد الاستيلاء عليها ، لولا ان اسرع اليها سليمان الريس ، بجموع من قبائل يافع والمهرة . فدخلها قهرا ، والحق باشراف الجوف والمماليك خسائر فادحة(١٢) .

وهكذا زادت خطورة سليمان الريس في بلاد اليمن وادرك مصطفى الرومي استحالة القضاء عليه حربا ، ولذا مال اليه ، وكان خير الدين حمزة قد ضاق ذرعا بتصرفات سليمان الريس ، وكره محاولة الاخير الانفراد باليمن(١٣) ، وقد استغل مصطفى الرومي هذه الفرصة ، وشجع خير الدين حمزة على التخلص من سليمان الريس وقد تمكن جند خير الدين من قتل سليمان الريس .

ونحن نرى ان مصطفى الرومي ، اختار خير الدين حمزة اداة لتنفيذ مؤامراته ، لان الاخير كان القائد الحقيقي للاسطول العثماني ، فهو يملك القوة التي يدافع بها عن نفسه ، ومحرضيه فيما لو فشلت المؤامرة من ناحية ولاقناع السلطان العثماني بان الحادثة ماهي الا صراع على السلطة ، وتمرد من تمردات الجنود وعبثها ، التي كانت تتعرض لها القوات العثمانية بين الحين والآخر من ناحية ، وذلك ضمانا لتلاشي ردود الفعل ، الا ان قتل سليمان الريس لم يؤد الى الهدوء المطلوب ، حيث اسرع ابن اخته مصطفى بيرم(١٤) ، من جازان الى زبيد قاصدا الانتقام من مصطفى الرومي ، فظفر به بعد ان استعان باتباع سليمان الريس ، وخاصة الخواجا صفر ، واحتل زبيد . ثم غادرها الى الهند سنة ٩٣٦هـ/٢٩ــ ١٥٣٠م ، مصطحبا معه الخواجا صفر ، وتسلم على الرومي الامور في اليمن بدلا من مصطفى الرومي(١٥) ، وكان علي ضعيفا ، ولذا نازعــه الامر الامير اسكندر موز لانه يرى نفسه اهلا لذلك . وقد تم له استلام السلطة ، وكان الاخير عادلا ، حسن المعاملة محبوبا من اهل اليمن .

وعلى اثر وفاة اسكندر موز سنة ٩٤٣هـ/٣٦ــ١٥٣٧م ، اجتمــع راي الامراء على تولية ابنه خلفا له ، الا ان هجوم المطهر بن شرف الدين الزيدي السريع على هذه المنطقة فرض على المماليك الالتفاف حول احمد الناخوذا (١٦) ، وكان من نتائج هذه الحملة : ــ

ــ انها مهدت الطريق امام حملة جديدة بقيادة سليمان باشا الخادم الذي وصل الى اليمن سنة ٩٤٥هـ/٣٨ــ١٥٣٩م (١٧) ونجح في بسط نفوذ الدولة العثمانية على تهامة وزبيد خلال فترة قصيرة .

ــ كما نجحت هذه الحملة في القضاء على بعض الزعماء المتمردين ، والذين سببوا مشاكل كثيرة للعثمانيين ، وكانوا يقفون حجر عثرة في طريق النفوذ العثماني .

ومع ان هذه النتائج تعتبر ايجابية في جملتها ، الا انها لم تؤد لاحتلال اليمن ، اذ بقي النفوذ العثماني محصورا في مناطق محدودة جدا ، في زبيد وجدة .

ولم تتمكن الحملة من طرد البرتغاليين من البحر الاحمر ، اذ استمر نفوذهم قويا في ذلك البحر ، بل تجاوزوه الى الهند(١٨) .

ولكن فشل هذه الحملة لم يثن العثمانيين عن مواصلة العمل لتحقيق اهدافهم في احتلال اليمن ، ولذا عادوا الى ارسال الحملات اليها ، ومما زاد في تصميمهم امتلاكهم لاسطول بحري وبري قوي ، ونحن مع تقديرنا للاسباب التي اشار اليها د. سيد سالم والتي دعت العثمانيين لمعاودة ارسال الحملات فانا نراها ممثلة بالعوامل التالية :

اولا ــ ازدياد الخطر البرتغالي في البحر الاحمر ، بعد ان احكموا سيطرتهم عليه وعلى المحيط الهندي ، بحيث انهم شكلوا خطرا على الوجود العثماني في مصر ، وعلى الحرمين الشريفين(١٩) ، الامر الذي يحتم على الدولة العثمانية المبادرة لدفع هذا الخطر .

ثانيا ــ امتد الخطر البرتغالي الى الهند ، وكانت فيها دولة اسلامية في كجرات طلب سلطانها الامدادات من العثمانيين ، غير ان البرتغاليين اسرعوا الى الهند قبل وصول الامدادات وقتلوا سلطان كجرات ، بها دورشاه ، فاثار هذا العمل الحمية الاسلامية لدى السلطان العثماني ، وعمل على تجهيز القوات العثمانية الى الهند (٢٠) .

ثالثا ــ ازدياد الاحتكاك بين القوات العثمانية والبرتغالية بعد احتلال الاولى للعراق ، واستعمالهم لشواطىء الخليج العربي الشمالية فاصبحوا وجها لوجه امام البرتغاليين ، ومما زاد في تأزم العلاقات بين العثمانيين والبرتغاليين ، وصول اخبار ــ لا يتطرق اليها الشك ــ الى السلطان سليمان القانوني اثناء حروبه في العراق بأن البرتغاليين امدوا الصفويين بالمعونات والمساعدات ، وارسلوا اليهم العمال والفنيين ليعلموهم صناعة السفن وادوات الحرب البحرية (٢١) .

وكنتيجة لهذه الظروف اصدر السلطان العثماني سليمان اوامره الى والى مصر سليمان باشا الخادم بالاعداد لحملة عسكرية كبيرة ، وامده بما يبني ثمانين سفينة حربية من مختلف الانواع والاحجام ، وعشرين الف جندي معظمهم من الشام ومصر وبينهم سبعة الاف انكشاري الى اليمن ، ومن الملاحظ ان تعيين سليمان باشا الخادم لقيادة هذه الحملة ، كان نتيجة لعلاقات شخصية،

ولثقة متبادلة بينه وبين السلطان سليمان القانوني ، وليس على سبيل الكفاءة ، اذ ان سليمان باشا الخادم كان لا يصلح لقيادتها لكبر سنه ، اضافة الى ضخامته وبدانته حتى انه كان يحتاج لمساعدة اربعة من الرجال ليقدر على النهوض (٢٢)، ومن ناحية اخرى كان الغدر والفتك ، وضعف التدبير ، صفة متأصلة فيه ، اذ لم يتخل عن اي من هذه الصفات حتى مع اصدقائه .

وقد ذكر عنه صاحب البرق اليماني ، اضافة الى جهله اساليب الحرب انه كان خصيا ، تربى اساسا في بلاط السلطان سليم بين الحريم ، فهو من مماليك السلطان الخاصة ، تقلب في مناصب عدة ، اهمها ولاية مصر ثم قيادة حملة اليمن(٢٣) .

تحركت الحملة من السويس الى جدة في ١٥ محرم سنة ٩٤٥هـ/١٤ يونية سنة ١٥٣٨م وكان قوامها سبعين غرابا ، وثلاثا وثلاثين برشة ، شحنها بالمدافع والضربزانات والبنادق وما تشتمل عليه الجبخانات (٢٤) ، حيث وصلت بعد سبعة ايام ، ومنها سار سليمان الى كمران ، ثم الى عدن التي وصلها في ٧ ربيع الاول سنة ٩٤٥هـ/١٣ اغسطس سنة ١٥٣٨م(٢٥) ، وبعد خمسة ايام من سيره دخل عدن ثم الشحر وعين نوابا من قبله عليهما ، وكان سليمان باشا الخادم قد امن سلطان عدن الطاهري ــ عامر بن داود الطاهري ــ وابلغه انه متوجه الى الهند لقتال الافرنج(٢٦) ، وطلب منه السماح لجنوده بدخول عدن لقضاء بعض حوائجهم من المؤن والطعام ، ولما كان الاخير يطمع في نصرته على الامام شرف الدين (٢٧) ، سمح لجنود سليمان باشا الخادم ، وقائدهم فرحان الصوباشي ، بدخول المدينة ، ولما دخلوها اساءوا معاملة اهلها ونهبوها وصادروا المدينة عملا بالاوامر الصادرة لهم من سليمان باشا الخادم ، بضرورة نهب المدينة واخضاعها ، وكان اميرها عامر بن داود الطاهري قد توجه على رأس وفد من اصحابه لمقابلة سليمان باشا الخادم ولما تيقن ان المدينة صارت تحت قبضته . اظهر غدره بعامر بن داود الطاهري واصحابه وشنقهم على صاري السفينة (٢٨) ، واشاع بين الناس ان عامر بن داود الطاهري ، كان على اتصال بالبرتغاليين ، وانه وعدهم بتسليمهم مدينة عدن (٢٩) وكتب الى السلطان في استانبول ، يعلمه انه اخذ عدن قهرا ، وزيادة في التأكيد كتب على بابها أنها ، فتحت في سنة ٩٤٥هـ/٣٨ــ١٥٣٩م (٣٠)،ومن ناحية اخرى ، حصن المدينة ، وزودها بالمدافع ، وقبل خروجه منها عين بهرام ، احد سناجيقه ، حاكما لها ، وابقى تحت امرته خمسمائة جندي (٣١) ، اما امير الشحر ، فقد احسن استقباله لوفد سليمان باشا الخادم ، واعلن الخطبة باسم السلطان سليمان القانوني ، وتهرب من مقابلة سليمان باشا الخادم ، خوف الغدر به(٣٢).

وقد اثر هذا الاسلوب الغادر على سير الحملة ، اذ نفر الناس منـــه وبخاصة الهنود ، الذين فقدوا ثقتهم بالعثمانيين ، فضاعت على العثمانيين فرصة تكوين جبهة اسلامية ، تتولى الدفاع عن المحيط الهندي والبحر الاحمر ، لو احسنوا استغلال العاطفة الدينية عند الهنود وغيرهم .

واصل سليمان باشا الخادم سيره نحو الديو ، وذلك لتنفيذ المرحلـــة الثانية من خطته القاضية بمحاربة البرتغاليين في الهند ، فوصل الى هناك فـي ٤ سبتمبر سنة ١٥٣٨ م ــ ٩ ربيع ثاني سنة ٩٤٥ هـ (٣٣) ، الى موضع يسمى مظفر اباد (٣٤) ، بعد صعوبات نجمت عن معاكسة الرياح . مما اضطره لانزال قسم من جنوده بالقرب من الديو (٣٥) وزودهم ببعض من المدافع البعيدة المدى ، وكلفهم بمساعدة الخواجا صفر ، وتطويق القلعة البرتغالية سرا ، بعد ان احكم الحصار عليها من ناحية البحر ، وبالفعل فقد شدد الحصار البحري على القلعة في ٦ جمادى الاولى سنة ٩٤٥ هـ ــ ٥ اكتوبر سنة ١٥٣٨ م ، غير انه لـــم يستمر طويلا ، اذ صدر الامر فجأة الى الجنود العثمانيين بالعودة الى السفن ، واقلعت عائدة الى شواطىء اليمن في ٦ جمادى الاولى سنة ٩٤٥ هـ ــ ٥ نوفمبر سنة ١٥٣٨م (٣٦) .

ويرجع قرار الانسحاب المفاجىء الى وقوع خطاب برتغالي في يـــد سليمان باشا الخادم ، بتوقيع قائد منطقة جوا البرتغالي ، موجها الى قائـد حصن الديو يخبره فيه بوصول نجدات برتغالية كبيرة اليه ، فخاف سليمان باشا الخادم واصر على الانسحاب والعودة ، مخالفا بذلك رغبة اصحابه ، وحتى رغبة خليفة الخواجا صفر الذي اتهم بأنه كان وراء هذا الكتاب المدسوس (٣٧)، اذ يعتقد ان الخواجا صفر زور الكتاب ليتخلص من سليمان باشا الخـــادم والعثمانيين ، لان سليمان باشا الخادم ، كان قد احتقر رسول سلطان كجرات الجديد محمود شاه (٣٨) حين استقبله في الديو ، كما انه رفض الخلع (٣٩) ، لانه ــ اي سليمان باشا الخادم ــ لا يتلقاها الا من السلطان سليمان ، ومعنى ذلك نكرانه لتعاون الهنود معه ، وتناسي انهم طهروا الجيوب البرتغالية الصغيرة المنتشرة في الديو ، وانهم نجحوا في حصر البرتغاليين في القلعة الرئيسية عند الميناء (٤٠) ، ولما عاد سليمان باشا الخادم الى الشحر ، اشاع بأن الهنود لم يساعدوه ، وانه لم يتلق منهم اي معونات ، وبخاصة من مسلمي الحبشة .

ونحن نرى ان ادعاءات سليمان باشا الخادم ، كانت باطلة ، وانه كان يهدف من ورائها التغطية على فشله في الهند ، تبريرا لسرعة عودته الى اليمن دون تحقيق شيء يذكر .

اما الاسباب الحقيقية لفشل هذه الحملة فتعود الى (٤١) :

ـ ضعف شخصية قائدها وسوء تدبيره للامور ، وتهوره في اتخـــاذ القرارات واعتماده على سياسة الغدر والفتك حتى بالاصحاب ، وكانت هذه السياسة سببا في فقدان ثقة الهنود به ، وقد احسن البرتغاليون استغلال سياسته هذه ، واشاعوا بين الهنود ان سليمان باشـا الخادم لن يقابل مساعده محمود باشا الا بالغدر والاساءة ، ودللوا على ذلك بغدره بحاتم الحمزاوي في مصر ، وولده يوسف والامير داود ابن علي ، وغدره في عدن بالامير عامر بن داود الطاهري (٤٢) .

ـ كما صدرت من سليمان باشا الخادم ، وجنوده عدة تصرفات اكـدت شكوك الهنود ، اذ احتقر رسول محمود باشا ، ورفض تسلم الخلع والهدايـا المرسلة اليه من سلطان كجرات ، كذلك ارتكب جنوده الذين نزلوا الى البر لمساعدة الخواجا صفر ، اخطاء كبيرة باساءة معاملة الكجراتيين (٤٣) ، ومعاملتهم بطريقة خشنة متعالية ، كما اعملوا فيهم السلب والنهب ، كذلك فقد كانـت الجبهة الهندية مفككة ، ولم يكن لدى الامراء الكجراتيين وسلاطينهم خطة موحدة ـ لمجابهة الخطر البرتغالي بعد عودة سليمان باشا من الهند ، الذي جعل هدفه اخضاع السواحل اليمنية اولا ثم اليمن كله ، وذلك لتغطية فشله في الهند .

ولما وصل سليمان باشا الخادم المخا ، راسل امير زبيد المملوكـي احمد الناخوذا ، يدعوه الى الطاعة ، وارسل اليه الخلع والمراسيم التي تقضي بتعيينه نائبا عن السلطنة في زبيد ، وفي نفس الوقت بدأ اتباعه بتحريض بعض قادة جنود احمد الناخوذا بالتخلي عنه نظرا لضعفه . والالتحاق بخدمة الدولة العثمانية ، والانضمام لجند سليمان باشا الخادم ، وقد التحق العديد منهم (٤٤)، وعندما ادرك احمد الناخوذا ان زبيد مأخوذة لا محالة ، اضطر لمقابلة سليمان باشا ، الذي قتله لدى وصوله اليه في ٨ شوال سنة ٩٤٥ هـ ـ ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ م (٤٥) ، وعين احد امراء الحملة مصطفى بك ـ نائب غزة السابق ـ حاكما لزبيد والمناطق التهامية التي كانت تخضع للنفوذ المملوكي ، وقد نظم مصطفى بك شؤون الحكم في منطقته ، وابقى عددا من المماليك في خدمته وعين بعضهم في مناصب ادارية هامة ، وذلك للاستفادة من خبراتهم في اليمن كما فرض على امير الشحر جزية سنوية قدرها مائة الف اشرفي ، ونحن نرى ان سليمان باشا الخادم بدأ بمهاجمة القوتين الضعيفتين في اليمن ، عامر بن داود الطاهري، من بقية سلاطين الدولة الطاهرية في عدن ، واحمد الناخوذا من بقية المماليك في زبيد لتأكده من سرعة هزيمتهما ، واحتلال مناطقهما ـ الاستراتيجية الهامة على البحر الاحمر ، والمحيط الهندي ومن ناحية ثانية فقد كان يظن ان ذلك سيرهب الامام شرف الدين وابنه المطهر ، لانه استطاع ان يقهر ما لم يستطيعوا انهاءه

كلية ، غير ان سوء تصرفه مع عامر بن داود الطاهري واحمد الناخوذا ، وغدره بهما ، كان له تاثير سلبي في نفس الامام بشكل خاص اذ رفض مقابلته عندما ارسل له ، وكذلك عند اليمنيين بشكل عام (٤٦) اذ راوا ان الوحدة ضد هذا الخصم هي خير وسيلة للحفاظ على اموالهم وانفسهم .

وكيفما كان الحال ، فان القضاء على الطاهريين في عدن ، وعلى المماليك في زبيد ، يعني بداية المواجهة المباشرة بين الزيديين والعثمانيين .

وفي الحقيقة ان سليمان باشا الخادم ، اتبع سياسة ذات شقين مع الامام شرف الدين ، اذ راسله يخبره بانه استولى على عدن وزبيد ، ويبرر قتله لامرائها ، لان الاول كان على اتصال مع الفرنجة ، والثاني رفض اطاعة العثمانيين وكذلك وجه الدعوة للامام شرف الدين لمقابلته ، وقد اتصفت هذه الرسائل بالترغيب والترهيب ، لكنه لم يفلح في جر الامام اليه اذ ان الامام شرف الدين تنبه الى غدر سليمان باشا ، وسوء نواياه ، ولذلك كان يخلق الاعذار ليتهرب من مقابلته .

اما الشق الثاني من سياسته ، فقد اتخذ طابع القوة ، بعد ان بين له مستشاروه اهمية الاستيلاء على تعز ومخاليفها ، لموقعها الهام بين عدن وزبيد وتامينا للمواصلات بينهما ، وقد حاول اقناع الامام شرف الدين بالتنازل عنها ، ولما رفض الامام شرف الدين ، تحرك سليمان باشا الخادم نحو تعز ، ولكنه فشل في اخذها ، اذ تمكن اهل تعز من صد هجومه(٤٧) ، كما فشل ايضا في الاستيلاء على حصن قواريز ، ولذا اتجه الى الشمال تاركا مهمة اخضاع تعز الى نائبه في زبيد مصطفى غزة ، واشتغل سليمان باشا الخادم في تحصين كمران حيث زودها بالمدافع(٤٨) وعزل والي جازان من قبل الاشراف في مكة ، واخضعها للسيطرة العثمانية مباشرة وعين عليها واليا من قبله ، وجعله مرتبطا بوالي زبيد العثماني ، ومن الواضح انه قام بهذه الاجراءات لاحكام السيطرة العثمانية على مدخل البحر الاحمر ، ومن ثم واصلت الحملة سيرها عائدة الى مصر ، بعد اخضاع جازان ، فوصلت الى جدة في ٢٢ شوال سنة٩٤٥هـ ـ ١٣ مارس سنة ١٥٣٩م(٤٩) . ومنها اتجه الاسطول الى السويس اما سليمان باشا الخادم ، فانه توجه الى مكة لاداء فريضة الحج جريا على عادة الولاة العثمانيين ، ثم توجه الى مصر حيث مكث بها خمسة اشهر(٥٠) .

وفي راينا ان سليمان باشا الخادم تعمد ان يطيل في رحلته ليتمكن من نشر الاشاعات والمبالغات في اعماله ، وهدفه ان تصل اخباره الى السلطان قبل ان يصل الى استانبول ، ليجد الحظوة الكاملة عنده بعد عودته ، سيما وانه

كان قد ارسل بعض رؤوس القتلى من البرتغاليين الذين كانوا في الديو والشحر الى استانبول ، ليؤكد للسلطان انه قضى تماما على البرتغاليين في الهند وبلغت الابهة ذروتها ، حين ارسل جاويشا الى الباب العالي يبشر بفتح بلاد اليمن(٥١)، وقد ضمن كتابه الذي ارسله مع الجاويش المبالغات التالية : ـــ

انه اخذ من البلاد ، ما لا يمكن حصره ولا عده ، وكتب اسم كل ضيعة او قرية ليس فيها الا بقرتان ، وعظم الامر جدا ، كي لا يقول ضاع سفره سدى ، والقى في سمع السلطنة من ذلك شيئا كثيرا تمويها وتزويرا .

لدى عودة سليمان باشا الخادم الى استانبول ، نال ما تمناه وعين وزيرا سنة ٩٦٠هـ/١٥٢٢م ، لمدة بسيطة ، عزل بعدها على اثر نزاعه مع خسرو باشا الوزير الثاني ، لتراشقهما تهما عدة وادعـــاء كل منهما على الآخـــر بمفاسد ارتكبها (٥٢) .

وكيفما كان الحال ، فبالرغم من الاتهامات الموجهة الى حملة سليمان باشا الخادم الى اليمن ، لا نستطيع ان ننكر جهوده في اخضاع السواحل اليمنية وجعلها قاعدة ارتكاز للاسطول العثماني في اى هجوم مقبل ، ومما لا شك فيه ان اعمال سليمان باشا الخادم في اليمن ، كانت بداية للحكم العثماني هناك وبداية لمرحلة جديدة من مراحل التاريخ اليمني .

ولكن يؤخذ على حملة سليمان باشا الخادم ان فتوحاته اقتصرت على منطقة السواحل من جازان حتى عدن والشحر . اما المناطق الداخلية فلم يتمكن من فتحها ، ولعل وعورة المناطق والطبيعة السكانية ، قد حالت دون ذلك كما احسن الامام شرف الدين استغلال الظروف ونجح في توحيد الجهة الزيدية .

كما تمكن سليمان باشا الخادم من اخضاع عدن للسيطرة العثمانية الفعلية ، بعد ان انتزعها من ايدي الطاهريين ، واما زبيد والمناطق التهامية ، فقد اقتصر على نقل السلطة من ايدي المماليك الى الموظفين العثمانيين ، الذين يعينون من قبل السلطان مباشرة دون فرض السيطرة الكاملة على المناطـــق المعينـــين عليها (٥٣) .

وكذلك فان مبالغات سليمان باشا الخادم خدعت الدولة ، ودفعتها الـــى التورط المباشر في اليمن والهند ، فالبلاد فتحت عنوة بعد القضاء على مقاومة الاهالي ، وتحطيم النفوذ البرتغالي في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، وهذا ما جعل السياسة العثمانية تتخبط في هذه المرحلة ، لانهم كانوا ينظرون الى صراعهم

مع اليمنيين ، على انه تمرد وخروج عن السلطة الشرعية ، فتلجأ الدولة لاساليب القمع والوحشية ، لانهاء هذه التمردات . بينما المقاومة اليمنية ما زالت قوية شارك فيها غالبية الشعب بدعوى ضد العدوان الخارجي .

وقد انعكست اثار سياسة سليمان باشا سلبيا على استراتيجية الدولة العثمانية ، حيث نظرت الى الثورات التي اندلعت في البلاد بأنها تمرد على الشرعية العثمانية ، ولو انها ادركت ان المقاومة مازالت في اوجها لاتخذت الدولة خطة اكثر واقعية متلائمة مع طبيعة الظروف الموضوعية التي تعيشها المنطقة .

واخيرا فلقد ترتب على فشل الحملات العثمانية في الهند ، انتهاج سياسة الدفاع ، بعد ان فشلت سياسة الهجوم ، ولذا عمل العثمانيون على تقويةنفوذهم في البحر الاحمر والتفتوا الى الجيوب البرتغالية المنتشرة على طول السواحل العربية ، ومعنى ذلك انه طرحت جانبا فكرة معاودة الهجوم على البرتغاليين بحملات اكبر ، كما اهملت فكرة تكوين جبهة اسلامية عريضة تتولى الدفاع عن البحر الاحمر والمحيط الهندي (٥٤) . وبالاجمال ، فان الشواطىء اليمنية هي التي خضعت للنفوذ العثماني فقط ، اما المناطق الداخلية فقد قاومت هذا الاحتلال فترة طويلة ، حتى تمكنت في النهاية من طرده ، والقضاء على مظاهره ، والباحث في تاريخ الصراع اليمني العثماني يستطيع ان يدرك بسهولة ان اطراف الصراع لم تكن متكافئة ، لان العثمانيين كانوا في اوج قوتهم وعظمتهم ، واتساع دولتهم ، الممتدة من المجر غربا حتى بلادفارس شرقا ، ومن البحر الاسود شمالا حتى عدن جنوبا ، اضافة الى سيطرتهم على البحر المتوسط والبحرين الاسود والاحمر وهم لم يحققوا هذه الانتصارات الا بجيشهم القوي ، الذي كان يفوق الجيوش الاوروبية بتجهيزاته ومعداته ، كما انهم اقدر على ارسال النجدات الى بلاد اليمن بعكس المماليك ، الذين دخلوا اليمن ودولتهم في مرحلة الشيخوخة والمرض، عاجزة عن ارسال النجدات الى اليمن ، لاشتغال قادتها بانفسهم ، كما ان وجود السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) (٩٢٧ هـ — ٩٧٤ هـ) على راس هذه الدولة ، زاد من قوتها ، ودفعها لاتخاذ الخطوات الضرورية لاستمرار جهودهم في الفتح اليمني ، سواء اكانت هذه الخطوات ادارية او حربية ، اذ استخدموا نظام الادارة العثمانية في الولايات التي فتحوها ، وجعلوا امر تعيين حكامها مرتبطا بالسلطان العثماني في الاستانة ، فظهرت الوظائف الادارية المعروفة لدى العثمانيين مثل الكتخدا ، والكيخيا ، والدفتردار ، والسردار والسناجق والاغوات في اليمن ، كما ان العثمانيين استمروا في تصفية الجيوب البرتغالية من شواطىء المحيط الهندي والبحر الاحمر ، بل وحاولوا مد نفوذهم الى السواحل الحبشية ، في محاولة منهم لاغلاق البحر الاحمر في وجه السفن

البرتغالية . اما الزيديون ، بزعامة الامام شرف الدين ، فقد كانوا في مرحلة ضعف وتفرق وذلك لتخبط قياداتهم ، وافتقارهم لخطة موحدة لمجابهة الخطر الذي يتهددهم ، اذ حاول كل منهم ان يستأثر بالسلطة ويفرض سيادته على منطقة معينة ، وزاد من ضعفهم تفرق الناس من حولهم نتيجة للاخطاء التي ارتكبها بعض عمالهم بحق الاهالي ، واخذوا يتحينون الفرص للايقاع بهم .

كانت اولى الخطوات العثمانية في هذه المرحلة هي تنظيم ممتلكاتهم في اليمن اولا ومهادنة الامام شرف الدين ثانيا ، ريثما تلوح لهم الفرصة المناسبة لمعاودة الفتح ، وتدعيما لهذا الموقف ارسل السلطان سليمان في ١٧ ربيع الاول سنة ٩٤٦هـ ٢٣ يولية ١٥٣٥م مرسومين الى الاميرين اللذين عينهما سليمان باشا الخادم في عدن وزبيد ، يثبتهما في الحكم . ومرسوما ثالثا الى الامام شرف الدين يقره على اوضاعه ، وطلب اليه الاستمرار في حفظ الامن (٥٥) ، ثم ان السلطان العثماني عين مصطفى النشار ، كأول وال عثماني في اليمن (٥٦) سنة ٩٤٧ هـ — ١٥٤١/٤٠ م ، واستمر واليا حتى سنة ٩٥٢ هـ/٤٥ — ١٥٥٦ م وامتازت فترة ولايته بالهدوء النسبي ، وكان مصطفى النشار يعمل سراجا عند دخول السلطان سليمان الى مصر ، وبعد عودة السلطان سليم الى مصر ، اختار الاقامة في مصر ، فترقى في المناصب حتى اصبح كاشفا في مصر ، ثم تولى امارة الحج سنوات طويلة ، وخلال هذه الفترة اصبح احد المقربين لداود باشا ، والى مصر حينئذ ، الذي رشحه ليكون اول وال للممتلكات العثمانية في اليمن ، (٥٧) وبعده عين السلطان سليمان سنة ٩٥٢هـ/٥ — ١٥٤٦ م ، اويس باشا ، وجهزه بجيش كبير دلت تجهيزاته والاته على ان العثمانيين قد قرروا تحويل اليمن الى قاعدة حربية كبيرة ، عند مدخل البحر الاحمر ، وزاد من تصميمهم على ذلك ما حدث في عهد مصطفى النشار من احداث هامة ، فرضت نفسها على العثمانيين ، وجعلتهم يسرعون بتنفيذ خطتهم المشار اليها سابقا ، اذ هاجم البرتغاليون الاسطول العثماني المتواجد في البحر الاحمر انذاك وارسل مصطفى باشا النشار نجدة عسكرية الى الحبشة لمساعدة مسلميها في حروبها ضد النجاشي حليف الفرنجة (٥٨) .

لقد كان الصدام بين العثمانيين والزيديين امرا محتما ، لتجاور هاتين القوتين ، وتوتر العلاقات بينهما ، وحشد كل منهما قواته في اتجاه الاخر اذ ليس من المعقول ان تبقي العلاقات سلما دائما ، طالما ان العثمانيين قد قرروا تحويل السواحل اليمنية قاعدة لهم ، وخط دفاع اول عن ممتلكاتهم في مصر ثم ان تعيين اويس باشا لقيادة حملة يمنية ، يعني انتصار دعاة الحروب في الدولة العثمانية وبالتالي فان الجنود العثمانيين الموجودين في اليمن ضاقوا ذرعا ببقائهم دون حرب (٥٩) ، سيما وان معظمهم من الانكشارية ، ولذا توجب على ولاتهم

توجيههم الى ميادين جديدة في الحبشة والسواحل العربية الجنوبية وكذلك اتصل المطهر باويس باشا يدعوه لمحاربة والده (٦٠) .

وفي نفس الوقت التجأ محمد بن اسماعيل الداعي ـــ زعيم الاسماعيلية الى الوالي العثماني ، هربا من الامام بعد ان شتت اتباعه ، وحرض اويس باشا على محاربة الزيديين ووعده بالمساعدة من اتباعه ومريديه .

وكان ان ارتكب الامام شرف الدين خطأين كبيرين ـــ كان لهما اثر كبير في تفتيت الجبهة الزيدية ، فانهارت لدى اول صدام معها ، واول هذه الاخطاء انه قسم مملكته بين اولاده بحجة مساعدته في ادارة الولايات ، متعللا بمرضه وكبر سنه وعدم قدرته على ممارسة سلطات الحكم ولكن هذا التقسيم حمل بين طياته بذور التفكك والانحلال والانحطاط . وثانيهما انه اوصى لولده على بولاية العهد ، مع انه اصغر من ابنه المطهر الولد الاكبر للامام شرف الدين صاحب الحق في تولي الامور بعد والده الامام شرف الدين ، مستندا في ذلك الى دليل شرعي ، وهو نقصان خلقة المطهر ، لعرجه ، ومدعيا جهله وسوء تدبيره للامور ، وهذه الصفات تتنافى مع شروط الامامة في المذهب الزيدي (٦١) ، فأثار موجة من الاضطرابات بين الاخوة احسن العدو استغلالها .

ونحن نؤكد ان الامام شرف الدين كان يرى في ابنه المطهر اداة للتسلط وارهاب للناس ، محبا لسفك الدماء ، فأراد الامام ابعاده عن ولاية العهد عله يحد من سلطته وجبروته على الناس ، ولكنه خسر بمعاداة ابنه ، المطهر ، شخصية حربية قوية تمكنت في وقت من الاوقات من فرض الوحدة بين اليمنيين بالحديد والنار .

كما استغل الانتهازيون هذا الخلاف ، وتحزبوا لواحد دون اخر ، وزادوا من اشعال الفتن (٦٢) وقد ادت هذه الاعمال ضد المطهر الى خروجه عن طاعة والده الامام شرف الدين ، وشجعته على اثارة اليمنيين والعثمانيين على السواء ضد والده ، وقد ابتدأ الصدام بينه وبين والده واخوته بسبب ذلك سنة ٩٥٢هـ/٤٥ ـــ ١٥٤٦ م ، حين سكن الامام في فدة بعد أن انتقل اليها من الجراف بحجة ان الاخيرة مصابة بالطاعون الواصل اليها بواسطة الاعراب القادمين من المدينة فلما استقروا فيها ، اسرع الامام شرف الدين بناء على نصيحة ابنه شمس الدين ليحصن قرية القابل ، واماكن اخرى في جبل مرشد قبلى وادي ظهر ، الامر الذي ولد شكوكا عند المطهر ، جعلته يتأكد انه مقصود بهذا لتسهل محاصرته معهم في طيبة ، القلعة الداخلية لوادي ظهر .

ومن ناحية ثانية ، فقد اكتشف المطهر ما يحيكه له والده واخوته في الخفاء وعرف تفاصيل مؤامراتهم التي اعدوها لالقاء القبض عليه عند صلاة الجمعة بمسجده بوادي ظهر ، ولذلك غادر المسجد الى الجبال القريبة ومنها اتجه الى ثلا ، ولم يخف شكه من والده ، بل بين له سوء نواياه واخوته تجاهه ، ولذا زادت الفرقة والتباعد بينهم (٦٣) ، وكان القتال امرا محتما فاقتتلوا سنة ٩٥٢هـ/٥ ــ ١٥٤٦ م عند حائط الشوكتين في البون ، وكان الامام شرف الدين قد وجه ابنه شمس الدين ومعه عدد كبير من جنوده الذين برفقته الى الجراف لقتال المطهر ، ولما تاكد المطهر من خلو الجراف ، جهز عسكرا لمهاجمتها ، واتصل بانصاره في طيبة ، ودعاهم لمحاصرة الامام في الجراف ، غير ان وصول النقيب مبارك شعبان ومعه خمسمائة عسكري ، اوقف هجوم المطهر . ورد العساكر من الجراف دون تحقيق اية نتائج (٦٤) .

وامعانا في الانتقام من الامام شرف الدين ، اتصل المطهر باويس باشا ، الوالي العثماني الذي كان قد وصل الى اليمن سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦ م ونزل في زبيد ، وشجعه على مهاجمة مملكة والده الامام شرف الدين ، ووعده بالمساعدة والعون ، وقد استجاب اويس باشا لطلب المطهر ، لاعتقاده انها فرصة مواتية لاستغلال الخلاف بين الامام وابنه المطهر ، ولكنه توجه الى تعز ، وليس الى صنعاء ، كما طلب المطهر ، وذلك لاهميتها الاستراتيجية كصلة وصل بين عدن وزبيد ، ولذا تهيأ يحيى بن ابراهيم النصيري للقائه ، بعد ان حصن المدينة غير ان انفضاض اصحابه من حوله والتجائهم الى اويس باشا ، وثورة اهل التعكر ضده ، بقيادة اميرهم مرجان ، ومحاربتهم في المعشار ، اضعف جانبه وتاكد من هزيمته ، ولذا عاد الى تعز ، وعلى الاثر تقدم اويس باشا الى تعز وحاصرها ، وقطع عنها الطعام والامدادات ، ولما تضايق اهل حبيش والشوافي وصهبان والقريتين ، وعرفوا ان اميرهم قد تركهم منفردين تحت رحمة الجيوش العثمانية ، استسلموا لاويس باشا (٦٥) .

تقدم اويس باشا بعد ذلك الى منطقة الجبال ، والجبال العليا القريبة من ذمار ، جنوبي صنعاء ، وسلك طريق نقيل الشيم ثم الى الشلالة من جهات خبان (٦٦) وقد تعمد سلوك هذا الطريق الطويل لرغبة اويس باشا بتدعيم النفوذ العثماني في هذه المناطق وليسهل عليه نقل معداته الحربية والاته ، التي اصطحبها معه نظرا لسهولة سلوكها ، وقد اضطرت هذه القوات للتوقف فترة من الوقت في ذمار بسبب مقتل اويس باشا في وادي خبان من قبل حسن بهلوان، الذي كان يطمع في الانفراد بالامور ، مستغلا كره اهالي منطقة ذمار لاويس باشا، لشدة ظلمه وجوره عليهم (٦٧) ، واختلافه مع الجنود ، ومعاداته للمماليك ، اذ حرمهم من بعض حقوقهم وقتل بعض زعمائهم ، ومن ناحية اخرى ، فقد كشفت

هذه المؤامرة عن مدى الخلاف بين العثمانيين والوافدين مع سليمان باشا الخادم والمماليك الذين كانوا في اليمن ، واعلنوا طاعتهم للدولة العثمانية ، لاسيما وان ـــ زعيم المؤامرة كان من المماليك الذين كانوا في اليمن ، وقد ظن حسن بهلوان ان الامور قد انقادت له بعد مقتل اويس باشا ، اذ واصل سيره نحو ذمار (٦٨) ، ولكن الامير ازدمر تصدى لحركة حسن بهلوان بالرغم من انه كان يضمر الشر لاويس باشا حتى انه اتهم بالاشتراك في المؤامرة ، الا انه كان يرفض التمرد ضد السلطة العثمانية ، ولذا سار بدعوة الجنود لطاعة السلطنة العثمانية (٦٩) ، وتجهز لقتال حسن بهلوان ، واعد خطة اشترك فيها اهل ذمار ، حيث تظاهروا بالانضمام لحسن بهلوان حتى اذا ما دخل مدينتهم قاتلوه ، ولذا ولى هاربـــا الى سايل معيج ـــ غربي مدينة ذمار ـــ حيث وقع في ايدي جماعة من قبيلة بنـــي غصين والكنيعي ، فقتلوه ، وا رسلوا براسه الى المطهر ، الذي استغله فـــي رفع معنويات جنده (٧٠) .

ونحن نرى ان حركة حسن بهلوان ، كانت تعبيرا عن مدى تذمر بقايـــا المماليك في اليمن ، لشعورهم بضعف نفوذهم ومركزهم ، بعد ان قبض العثمانيون على زمام الامور في البلاد . وفي الحقيقة ، فان الفترة التي تلت مقتل اويس باشا كانت من احرج الفترات التي مر بها العثمانيون في اليمن ، اذ كادت هذه الحركة ان تعصف بكيانهم ، لو احسن الزيديون استغلال الظروف ، بسبب احتـــدام الصراع بين الولاة العثمانيين على السلطة ، كما امتدت حركة حسن بهلوان الى مناطق كثيرة من اليمن ، حتى اصبحت تهدد بشمولها الوجود العثماني ، اذ اعلن الامير حيدر احد اتباع حسن بهلوان ثورته في زبيد ، واستولى عليها (٧١) ، وامتدت ثورته الى باقي مدن تهامة ، وخاصة بيت الفقيه بن عجيل (٧٢) ، لولا ان تصدى ازدمر لهذه الحركة ايضا وبصورة حازمة ، اذ انه سير الجيـــوش بقيادة الامير موسى وتمكن من القضاء على حركة الامير حيدر ، وقتل اربعة عشر شخصا من زعماء المتمردين ، ومنهم الكيخيا صفر ومحمد كاشف بيت الفقيه بن عجيـــل .

وما زاد الاحوال اضطرابا على العثمانيين في هـــذه الفترة الحرجة من تاريخهم ، ثورة علي بن سليمان البدوي سنة ٩٥٣هـ/٦ـــ١٥٤٧م (٧٣) ، وهو من عربان الطوالق ، بني مبروك فخذ من ال الفضل المعروفين بالعصيان ، الذين كانوا يسكنون في وادي ابين (٧٤) ، وكان هؤلاء العربان ورؤساؤهم ، قد حرموا من المرتبات السنوية التي كانوا يتقاضونها ، من ملوك اليمن السابقين نظير حماية طرق التجارة في اراضيهم (٧٥) .

وقد استمرت ثورته قوية حتى سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م ، واخطر ما في هذه الثورة ان زعيمها علي بن سليمان ، اتصل بالبرتغاليين ، ووعدهم بالمساعدة

والسماح لهم باستعمال الموانىء العدنية مقابل مساعدتهم له ضد الامامـــة الزيدية ، وهذا ما دفع نائب مصر العثماني ــ داود باشا ــ الى تسييره جيشا عثمانيا قويا الى عدن ، وامدهم فرهاد باشا الوالي المعين لليمن بجيش اخر وصلهم من بندر المخـــا .

وقد تمكن الجيشان من دخول عدن سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م ، وانهاء تمرد علي بن سليمان البدوي وقتله ، وقتل ابنه محمد الذي تولى الامور من بعده (٧٦) وكان البرتغاليون قد تأخروا في الوصول الى عدن ، اذ وصلت السفن العثمانية قبلهم ، وتمكنت من الحاق الهزيمة بسفنهم التي وصلت لنصرة علي بن سليمان البدوي .

وفي رأينا ان هذه الاوضاع التي عاشها العثمانيون في هذه الفترة كادت ان تصبح نقطة تحول في التاريخ اليمني ، لو احسن الزيديون استغلالها ، اذ فقد العثمانيون عدن وزبيد وهي ممتلكاتهم الرئيسية في اليمن ، واشتغلوا بخلافاتهم الداخلية ، بعد قتل اويس باشا ، فكل امير يطمع في الاستحواذ على السلطة والاستقلال بالحكم ، ولكن الزيديين لم يرتقوا لمستوى الاحداث ، بل استمروا في خلافاتهم الشخصية ، وصراعاتهم على السلطة ، ونستطيع ان نتبين الموقف الزيدي وتفككه ، اذا القينا الضوء على اوضاعهم في هذه المرحلة لا سيما وان الامام شرف الدين وابناءه قرروا استرضاء اخيهم المطهر في محاولة منهم لراب الصدع ، ولانهم ايقنوا ان المطهر لم يحاربهم بعنف الا لانهم افرطوا في ملامه وتقريعه ، ولذا كتبوا اليه وهو في ثلا يعرضون عليه توحيد جهودهم لمحاربة العدو المشترك (٧٧) ، فادرك المطهر انهم في حالة ضعف ، ولذا تشدد في عقد الصلح معهم ، وتشدد في املاء شروطه عليهم ، فوافقوا عليها وهي : ــ

ــ ان يسلموا اليه صنعاء ، وجميع ما يحيطها من حصون بما فيها من طعـــام وسلاح .

ــ ان تكون له السيطرة في كل بلا الامام يتصرف فيها كما يشاء .

وبذا ، خضعت للمطهر كافة بلاد الامام باستثناء كوكبان والعروس التي استمر فيها شمس الدين ابن الامام حاكما لها ، وبقيت كحلان تاج الدين ،وعران بني عشب ، لاولاد الحسن وحصن ذمرمر لرضي الدين ، وعران الغص تحت سيطرة علي (ابن) الامام (٧٨) ، ولتأكيد هذه السيطرة ضرب المطهر السكة باسمه .

كان التوحيد الذي حدث في صفوف الزيدية شكليا اذ استمرت الاحقاد والضغائن القديمة مشتعلة بين المطهر من ناحية ، ووالده واخواته من ناحية اخرى ، وقد وقعت خلال هذه الفترة بعض الحوادث التي اكدت ان نوايا الزيديين ليست سليمة اتجاه بعضهم البعض ، اذ انتقم المطهر من اتباع الامام لدي دخوله صنعاء سنة ٩٥٣هـ/٦-١٥٤٧م وصادر ممتلكاتهم ، متجاهلا ان هذا العمل قد ينسف اتفاقية المطهر ووالده ، كما طلب من والده تسليمه بعض المواقع الاستراتيجية الهامة ، التي كانت تحت سيطرة اخوته عز الدين ، وشمس الدين، كحصن الزاهر وسوق الدعام ليأمن من غدر اخوته اولا ، وتدليلا على حسن نواياهم تجاهه ثانيا ، ولاهمية هذه المواقع الاستراتيجية الهامة في مقاتلة الاعداء العثمانيين ثالثا (٧٩) ، وقد تم له ما اراد وسلمت له كافة المواقع .

ونحن نرى ان الامام شرف الدين قد استجاب لمطالب ابنه المطهر وتنازل عن كثير من حقوقه مرغما لعدة امور منها : -

اولا ادراكه لخطورة القوة العثمانية المهاجمة لليمن ، متمثلة بقوة معداتها وتجهيزاتها وحنكة قيادتها الحربية ، وضخامة اعداد جنودها ، وحسن تدريبهم .

ثانيا رغبته في توحيد الجبهة الزيدية ، لتكون صفا واحدا ، سيما وان الشعب اليمني لن يغفر لهم تمزقهم امام القوة المهاجمة .

ثالثا ضعف قوات الامام بالنسبة لقوات المطهر وسيطرته على المواقع الاستراتيجية التي سيطر عليها المطهر لضعف قوات الامام ، مثل حصن ثلا ، خط الدفاع الثاني عن الشمال بعد صنعاء ، ومفتاح الشمال . فاذا ما تعرضت صنعاء لهجوم ، امكن امدادها بسهولة من ثلا . الا ان التفتت والانقسام استمر قويا بين المطهر واخوته ، وهذا ما افشل حملته التي حاول بها مهاجمة العثمانيين ، وهم في ذمار ، مستغلا انشغالهم بخلافاتهم الداخلية ، حيث ان بعض اخوته اتصل بالعثمانيين وحرضهم على مواصلة حربهم ضد المطهر ، ووعدهم بالعون والمساعدة الامر الذي حتم على المطهر البقاء في صنعاء حتى تقدم اليها العثمانيون ، ثم غادرها الى طيبة لاشرافها على صنعاء(٨٠)ومن ثم عاود العثمانيون انتصارهم على الزيديين بعد ذلك ، وقد تغلب العثمانيون على المشاكل التي واجهوها في هذه المرحلة .

من المؤكد ان الفترة التي تلت مقتل اويس باشا ، كانت احرج الفترات التي مرت بالعثمانيين في اليمن ، والتي كادت ان تعصف بكيانهم ، لولا ان اسرع

الامير ازدمر الجركسي الاصل ـــ الذي كان قد وصل الى اليمن مع سليمان باشا الخادم وبقي فيها بعد رحيل الاخير عنها ، الى معالجة الامور بحكمة وروية اذ تمكن من القضاء على حركة حسن بهلوان (٨١) ، وقتله ، ثم انهى تمرد القبائل التي كانت قد ثارت على النفوذ العثماني في الجنوب ومن ثم تفرغ لحل مشاكل جنوده ، بان اعطاهم بعض المكافآت والهبات وهياهم لميادين جديدة ، ومن الجدير بالذكر ان العساكر العثمانية وغالبيتهم من الانكشارية ، كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على كل من تولى اليمن ، لتكرار مطالباتهم المالية ولتعودهم على قبض المكافآت والهبات كلما احرزوا نصرا ، مهما كان صغيرا بيد ان اخطر ما واجه الامير ازدمر فتنة علي بن سليمان البدوي ، الطوالقي ، الذي كان قد سيطر على عدن ، ومع ان ازدمر لم يتمكن من القضاء عليها الا انه اتخذ بعض الخطوات الضرورية لانهائها ، اذ اصدر اوامره لنائبه في المخا (٨٢) بمساعدة القوات السلطانية القادمة من مصر والتعاون معها للقضاء على تمرد علي بن سليمان البدوي .

اكمل ازدمر جهوده في اليمن لانقاذ موقف العثمانيين فيها بالقيام بعملين هامين ، اذ اوفد رسولا الى السلطان سليمان يخبره بقتل اويس باشا وما تلا ذلك من احداث ، وقضائه على حسن بهلوان وانهاء تمرد القبائل ، ثم طلب من السلطان تعيين وال جديد لليمن حتى تستتب الامور فيه (٨٣) .

ولخطورة الموقف لم ينتظر ازدمر وصول الوالي الجديد ، بل واصل زحفه نحو صنعاء علّه يحقق بعض النجاح ، وحلا لكثير من المتاعب التي واجهها في تلك الفترة ، فالجنود العثمانيون اخذوا يفكرون في امورهم الخاصة وهذا ما يزيد الموقف تعقيدا بالنسبة لازدمر ، فايقن ان خير وسيلة لعلاج مشاكلهم الخاصة ، فتح ميادين جديدة للحرب ، وادرك كذلك استحالة الدفاع عن الممتلكات العثمانية، فيما لو بقي ساكنا ، واعتبر ان الهجوم خير وسيلة للدفاع عن الممتلكات العثمانية، ومن ناحية اخرى ، فان بقاءه في ذمار ، او عودته الى زبيد كان يعني ضياع الجهود الحربية التي بذلها العثمانيون ، حتى استولوا على ذمار ، ولذا فضل مواصلة الحرب والتقدم نحو صنعاء وخاصة بعد ان فشلت حملة المطهر في احتلال ذمار .

تقدمت الجيوش العثمانية نحو صنعاء في سنة ٩٥٤هـ/٧ـــ١٥٤٨م ، وكان المطهر قد تركها الى قلعة طيبة ، لاشرافها على صنعاء ، وسهولة الغارة منها على صنعاء ما اذا ما دخلها العدو ، وترك بصنعاء نائبا عنه ، صلاح بن شمس الدين ، ابن اخيه ، فتقدم الامير ازدمر لمحاصرة صنعاء ، وجرت بينهما معركة بالقرب من باب المنجل ، هزم فيها العثمانيون ولكنهم ضربوا صنعاء من باب السبحة ،

انتقاما منهم ، الا انه تمكن في النهاية من هزيمة المطهر واخيه شمس الدين ، وقد تفرق ابناء الامام شرف الدين بعد هذه المعركة اذ هرب المطهر واخوه شمس الدين الى الضلع ، ومنها الى نقيلة . حيث استقر المطهر في ثلا واما شمس الدين فانه اتجه نحو كوكبان .

وشدد العثمانيون حصارهم على صنعاء بعد انفصال المطهر عنها سنة ٩٥٤هـ/٧ــ١٥٤٨م وقد دخلوها بفضل خيانة احد قواد المطهر الذي سهل للعثمانيين الدخول اليها من باب شعـــوب ، ولكن العثمانيين لاقوا مقاومـــة عنيفة من اهالي صنعاء عند السايلة وعند بستان السلطان ، وقد روى المؤرخون ان الجنود العثمانيين انشغلوا بالسلب والنهب والقتل بعد استيلائهم على المدينة وصوروا مدى الفوضى التي اجتاحت صنعاء بعد دخولهم اليها وقد ذكروا انه قتل من اهل صنعاء الف ومائتان ونهبت البيوت واخذت النساء والبنين وباعوهن في الاسواق ، ومن الناس من زال عقله ومن النساء من قتلت نفسها واشتد فيها الخطب ، وكثر الضرب والسلب (٨٤) .

كان لتفكك اسرة الامام شرف الدين ، اثر كبير في تشجيع الامير ازدمر على مواصلة زحفه نحو الشمال وبالتالي ملاحقة الزيديين في معاقلهم ، مع ان جذور هذا التفكك كانت ممتدة الى بداية عهد الامام شرف الدين ، حين عين ابنه عليا للامامة بعده ، ولذا اتخذ كل واحد منهم الخطوات الضرورية لتدعيم مركزه ، وهو يعرف خصومه حق المعرفة . اما في هذه المرحلة ، فقد اتسم تعاون ابناء المطهر بالخداع ، ورغبة كل واحد منهم في التخلص من الاخرين ، وكان انسحاب شمس الدين بعد معركة صنعاء ، ومفارقته لاخيه المطهر الى كوكبان سببا حاسما في هزيمة المطهر ، ولذا استغل شمس الدين ظروف اخيه الصعبة واتصل سرا بالعثمانيين محرضا اياهم على مواصلة الحرب (٨٥) .

اما اخوه علي بن الامام ، فقد كان حاقدا على المطهر ، لانه اضاع عليه فرصة الترشيح للامامة ، وعمل سرا على الاتصال بالعثمانيين للانتقام من اخيه ، وكان علي بن الامام قد انتقل الى حصن ذمرمر بحجة زيارة اولاد اخيه ، ولما وصل اليه واستقر فيه كتب الى المطهر يعتذر عن النزول اليه (٨٦) ، ولم يكتف بذلك بل شجع العثمانيين على التقدم نحو صنعاء من ذمار ، ووعـــد ازدمر بالتأييد ومرتبات سنة كاملة ان حارب المطهر وتقدم نحو صنعاء ، واخذ يحرض القبائل لاعلان تمردها على المطهر (٨٧) .

ومما زاد في سوء احوال المطهر ، انفضاض القبائل من حوله وخاصة قبائل شمام والحمزيين ، ووقوفهم ضده حين بدا صدامه مع العثمانيين .

ولذا اتجه الى بلاد الظاهر بعد تأكده من استيلاء العثمانيين على صنعاء ، لينطلق منها الى صنعاء مرة ثانية ، معتمدا على قوة جيشه الكثير العدد ، والمجهز باحدث الالات الحربية .

علم المطهر بوصول اخيه ، عز الدين الى بلاد الظاهر ، فكتب اليه ينصحه بعدم البقاء في الظاهر ، لان اهلها لا يعتمد عليهم لسهولة استمالتهم من قبل العثمانيين واشار عليه بالتوجه الى جبال عيال يزيد ، لقربه منه وسرعة الاتصال به ، ووعده بالامدادات ، ولفت نظره الى بعد بلاد الظاهر وبين له ان الطريق اليها محفوفة بالمخاطر ، لاعتماده اساسا على ولاء ثلا والقبائل المحيطة بها ، الا ان عز الدين ، رفض طلب اخيه المطهر ، واجابه بما مضمونه « ما ذكرت من انتقالي الى جبال عيال يزيد ، فمن الله استمد المزيد ، وانا ان شاء الله ، ظافر بالاروام ، وجاعلك في الختام ، فانت راس الاعادي ، الحاضر منهم والبادي » (٨٨) .

كان الامير المطهر على علم بما يبيته عز الدين ، فقد وصلته اخبار استعداداته الحربية ولذا حاول تقويضه من الداخل ، بان اتصل بانصاره يدعوهم لطاعة السلطنة العثمانية وقد حقق نجاحا في هذا المجال . اذ تخلى اشراف الجوف عن عزالدين واعلنوا انضمامهم للامير ازدمر وكان عز الدين قد اساء معاملة اهل الظاهر ، والح عليهم بتسليم الرهائن منهم ، ومع ان موقف الاشراف بصورة عامة واشراف الجوف بصورة خاصة ، كان معاديا للامام شرف الدين واولاده ، منذ وقت مبكر ، غير انهم لم يجاهروا بعدائهم الصريح الا بعد ان ــ سقطت صنعاء في ايدي العثمانيين وكانوا قد تثاقلوا عن نصرة المطهر حين هاجم ازدمر بصنعاء ، وبقوا على موقفهم اللامبالي حتى سقطت صنعاء في ايدي الترك كما انهم اتفقوا سرا مع ازدمر على اعاقة تقدم عز الدين من صعدة ، فيما لو فكر بمناصرة اخيه المطهر في صنعاء .

وقد بلغ عداؤهم قمته ، حين انسحبوا من جيش عز الدين ، وانضموا لازدمر ، وقاد زعيمهم ناصر الدين بن احمد الحمزي ومحمد بن الحسن الحمزي جموعهم لقتال عز الدين .

وكيفما كان الامر فقد طلب عز الدين النجدة من والده ، وحاول المطهر خلال هذه الفترة توحيد الجبهة الزيدية ، حيث دعم طلب اخيه عز الدين لدى والده ، بضرورة ارسال النجدات ، وطلب اليه ان يبعث باخيه شمس الدين من كوكبان ، على ان يساعده ويتقدم اليه من ثلا ، غير ان الامام شرف الدين رفض ذلك بحجة انه لا يستطيع ان يتخلى عن شمس الدين لحاجته اليه في حمايته الخاصة ولذا فقد اعتذر المطهر من جانبه لاخيه عز الدين لخوفه من احتلال اخبه

شمس الدين لثلا ، لو خرج منها المطهر . وجد عز الدين نفسه مضطرا لمقاتلة العثمانيين ، وذلك بعد ان جمع القبائل من حاشد وبكيل ومرهبة وبني جبر والصيده والتقى مع العثمانيين في معركة عند جبل صبيح ، انتهت بهزيمة وهربه الى حجر ظفار ، حيث القى ازدمر القبض عليه هناك ، ونفاه الى استانبول ، لكنه مات في الطريق ، عند وصوله الى ميناء الينبع (٨٩) .

قويت هيبة ازدمر بعد قبضه على عز الدين ، ولذا صمم على القضاء على روح المقاومة المتمثلة في وجود المطهر في ثلا ، وشجعه على ذلك ضعف اسرة الامام شرف الدين وتفككها ، فكتب الى المطهر يطلب منه تسليم ما في يده من معاقل ويطلب اليه دفع غرامة قدرها خمسون الف دينار ، ولم ينتظر رد المطهر الذي كان ميالا لدفع المبلغ بل تقدم نحو المائدة ، قبلي الناصرة ، المقابلة لثلا ، وقد حاربه المطهر هناك وهزمه .

كانت هذه المعركة الصغيرة حاسمة بالنسبة للمطهر ، اذ ترتب عليها معاودة القبائل لنصرة المطهر — بعد ان زادت ثقتهم به نتيجة نصره في هذه المعركة ولذا تقدم المطهر بهذه الجموع لمحاصرة العثمانيين وضيق عليهم حتى طلبوا الصلح وابدوا رغبتهم في العودة الى صنعاء شريطة ان يأمنهم المطهر على ارواحهم واموالهم وقد قبل المطهر بذلك ، بعد ان اخذ عليهم العهود والمواثيق الا يعودا لحربه (٩٠) .

لقد استطاع العثمانيون ان يمدوا نفوذهم خـــلال هذه الفترة الى قلب المنطقة الشمالية بعد احتلالهم لصنعاء ، على الرغم من عدم سيطرتهم على كل المناطق في الشمال ، لانه كان من العسير عليهم ان يبقوا في صنعاء مكتفين بما حققوه من مكاسب ولاستحالة الدفاع عن صنعاء ، اذا ما تحركت كافة القوى اليمنية ضدهم ، سيما وان التذمر اليمني من الوجود العثماني قد عم مختلف المناطق ، بعد ان ضاق اليمنيون ذرعا باعمـــال الجنود العثمانية الانتقامية وتصرفاتهـــم العدائية ، وقد اشتدت هذه النقمة بعد احتلال صنعاء وهذا ما جعل القبائل اليمنية تصعد مقاومتها ضد العثمانيين تجد هذه المقاومة قبولا عاما لدى جميع اليمنيين . وفي راينا ان احتلال صنعاء وضع العثمانيين وجها لوجه امام مشاكل الشمال الطبيعية ، والبشرية ، لان البيئة الطبيعية الوعرة كانت تقف عائقا في طريق تقدم الجيوش العثمانية ، بينما احسن اليمنيون استغلالها واوقعـــوا بالعثمانيين خسائر فادحة عند عبورهم مناطقهم الجبلية ، كما ان البيئة البشرية التي واجهها العثمانيون كانت غالبيتها بيئة بدوية محاربة لا تقبل الذل ولا تستكين اليه وقد حاربوا بكل عنف وشدة لان هذه القبائل البدوية تأكدت من ان الظلم والجور واقع عليهم لا محالة ، لو استكانوا مع ان بعض هذه القبائل كانـــت

تعتنق المذهب السني ، فلم تحل وحدة المذهب مع العثمانيين دون محاربة المغتصب .

ولذا كانت حروب العثمانيين في الشمال اصعب واعقد من حروبهم في الجنوب ، لكنهم نجحوا في اخضاع الشمال لتفكك الزيديين اولا ، ولاستفادة العثمانيين من القوى المعادية للزيدية في الشمال ، سواء اكانوا من الاشراف ام الاسماعيليين ، كما ان الاخطاء التي وقع فيها الامام واولاده ونزاعهم على السلطة ، وسوء تصرف ولاتهم مع اهل البلاد زاد من تفرق الناس عنهم بل والانضمام الى العثمانيين في بعض الاحيان ، اما القوة العثمانية المهاجمة فقد تميزت بحسن تجهيزها ، ووفرة معداتها الحربية وقوة شخصية قيادتها الحربية والسياسية ، بالاضافة الى سهولة امدادها ، لقوة المركز في الاستانة وهذه الظروف ساهمت باخضاع الشمال حتى صعدة ومن ناحية ثانية ارسلت النجدات العثمانية الى عدن لاخضاعها بعد ثورة علي بن سليمان البدوي — الطوالقي — بقيادة والي اليمن الجديد فرهاد باشا سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٧م لتجاوز تلك الثورة حدودها المحلية ، لاتصال زعيمها بالبرتغاليين وتهديدها للوجود العثماني في المحيط الهندي والبحر الاحمر ، وهذا ما دعا الدولة العثمانية الى الاسراع في ارسال الامدادات الى اليمن .

وقد تمكن فرهاد باشا بمساعدة القوات الواصلة من مصر ، من القضاء على ثورة علي بن سليمان البدوي ومحاربة اشراف صبيا وصاحب جازان ، ابن مهدي (٩١) .

كان فرهاد باشا معروفا بحسن سيرته ، وعدله في بلاد اليمن فمال اليه اليمنيون ولم تدم فترة حكمه في اليمن ، اذ عزله السلطان حين ارسل الامير ازدمر رسوله جقل احمد الى استانبول ، ليبلغ السلطان باخبار الفتوح في اليمن ، ويطلب من السلطان ولاية اليمن لنفسه ، وقد استجاب السلطان لطلب ازدمر وعينه واليا لليمن في ١٨ جمادى الاولى سنة ٩٥٦هـ/يونيه سنة ١٥٦٩م ومنحه رتبة الباشوية بحكم منصبه (٩٢) .

واصل ازدمر باشا حروبه في المنطقة الشمالية المسيطرة على اغلب المناطق اليمنية الشمالية حتى صعدة والطرف الثاني هو المطهر الذي تمتد سيطرته في المنطقة الشمالية الغربية من صنعاء في ثلا وما جاورها (٩٣) ، وهي منطقة معروفة بشدة وعورتها . وبالرغم من عدم تكافؤ الطرفين من حيث القوة والمعدات فان ازدمر لم يستطع ان يحقق نجاحا يذكر في هذه الجبهة .

وكيفما كان الحال ، فقد بدا الصدام بين المطهر والامير ازدمر بعد هزيمة اخيه عز الدين والقاء القبض عليه ، ونفيه الى استانبول ، اذ ان الامير ازدمر كان يدرك بأنه لن يخضع الشمال الا بالقضاء على المظهر ، المتحصن في ثلا . ولذا تقدم اليها ولكنه فشل في اخذها مع انه دك اسوارها ، وكان لهذه المعركة اثرها في رفع الروح المعنوية عند المطهر واتباعه ، اذ شجعت القبائل اليمنية على الالتفاف حول المطهر بعد ان اضطر الامير ازدمر للتراجع الى صنعاء ، كذلك تكررت انتصارات ــ المطهر على ازدمر في معارك البون سنة ٩٥٥هـ/١٩٤٨م وزادت التفاف القبائل حوله ، وازاء هذه المواقف اتخذ ازدمر سياسة تطويق المناطق المحيطة بالمطهر ، اذ ارسل حامية استقرت في حصن شبام ــ القريب من ثلا ــ برضى من شمس الدين ابن الامام شرف الدين ، الذي كان قد دخل في طاعة العثمانيين ، واحتل حصن بيت عز ، وزوده بحامية قوية من جنده ، كما قوى حصن عمران ، وقد عامل ازدمر اهل البلاد المحتلة معاملة جائرة ، اذ كان قد قتل اعدادا كبيرة منهم ، وخاصة من جنود بيت عــز بعد ان استسلموا لـــــه (٩٤) .

كما سمح لجنده بنهب بيوت واموال اهل شمات ، وقد نجم عن ذلــك انضمام قبائل منطقة الحيمة وتيس الى المطهر بعد ان تركت نصرة العثمانيين لسوء اعمالهم . وبالاجمال فان ازدمر باشا لم يستطع ان ينتصر على المطهــر في معركة حاسمة ، لذلك فضل الانسحاب من المنطقة الشمالية الى صنعاء ، وقد تكبدت قواته خسائر فادحة في الارواح والمعدات لدى انسحابها من المنطقة لجهلها بتضاريسها ، ولشدة وعورتها ، وصعوبة نقل معداتها ، ومـــــوء استخدامهم لهـــا .

وازاء توزيع الجيش العثماني في مناطق متعددة من اليمن وكثرة خسائر القوات العثمانية ، وتدعيما للوجود العثماني ، ارسل ازدمر باشا يطلب مددا من السلطان سليمان ، وكان يأمل ان تصله هذه القوات بسرعة ولكنه فوجيء بوصول ثلاثة الاف من المشاة ، والف من الفرسان ، بقيادة مصطفى النشار ، وذلك في سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م (٩٥) فقط بينما كان يأمل ان تصل الاعداد بصورة اكبر واكثر ، وقد اختلفت المصادر العثمانية في اسباب ايفاد مصطفى النشار بهذه السرعة الى اليمن ، اذ يرى بعض المؤرخين ان السبب في ذلك هو اعتقاد السلطان ان المطهر يعتمد المعتقدات الفاسدة مذهبا ، بينما يرى اخرون ان عدم وصول الامدادات التي وعد بها ازدمر باشا للبلاط السلطاني وتعلل الاخير بأن عصيان المطهر واشتغاله بحروبه معه حال دون جمع الاموال وارسالها ، ولذلك صمم السلطان على القضاءنهائيا على المطهر ، ومهما كانت الاسباب ، فقــد اصدر السلطان سليمان اوامره الى داود باشا بتجهيز الحملة التي اشرنا اليها

سابقا ، وترك له حرية اختيار من يراه مناسبا لقيادتها وقد وقع اختيار داود باشا ـــ والي مصر ـــ على مصطفى النشار ، لاعتقاده بافضليته لخبرته السابقة في بلاد اليمن ، وقد زوده بفرمان سلطاني فيه دعوة للمطهر بالطاعة والدخول في الجماعة .

ومن مطالعتنا لهذا الفرمان (٩٦) ، نستطيع ان نستشف منه الامور التالية : ـــ

ـــ ان الامام شرف الدين واولاده والمطهر ، كانوا قد اعلنوا الطاعة للدولة العثمانية ، منذ توجه سليمان باشا الخادم الى الهند سنة ٩٤٥هـ/٣٨ـــ١٥٣٩م ، لتخليصها من الفرنجة ومن ثم استمرت مراسلات والده الامام شرف الدين تؤكد استمرار الطاعة ومعنى هذا ان حركة المطهر هي عصيان وخروج عن الجماعة وعليه يجب ان يعامل معاملة العصاة وقطاع الطرق .

ـــ حوى الفرمان تهديدا ، ووعيدا للمطهر ، مذكرا اياه بقوة الدولة العثمانية واخضاعها لدول امبراطوريات اكبر واقوى من اليمن ، ودولها باضعاف المرات .

ـــ كما يعطي الفرمان فرصة للمطهر بالعفو عنه فيما لو دخل في طاعة القائد العثماني مصطفى النشار ، ويؤمنه على نفسه وامواله ، ومن ثم تسلم اليه الخلع والسناجق المرسلة مع القائد مصطفى النشار من قبل السلطان سليمان . ونحن نرى ان السلطة العثمانية كانت مخطئة في حساباتها ، وتقديراتها في اليمن ، هذه الفترة ، اذ يتمكن سليمان باشا الخادم من تزويدها بمعلومات خاطئة حول خضوع الامام شرف الدين وابنه المطهر ، فهما لم يذعنا للسلطة العثمانية ، وكل ما اعترفا به مُددا للصلح المؤقت كانت تنتهي بنقضها اما من قبل العثمانيين او الزيديين .

وقد تضمن جواب المطهر بعد ان وصله الفرمان (٩٧) الامور التالية : ـــ

ـــ انه نحى باللائمة على جنود السلطنة العثمانية لمحاربتهم اليمنيين دون الكفاءة واشتغالهم بالسلب والنهب وجمع الاموال وهذا ما اسقط الجنوب في ايدي البرتغاليين وادى الى اشتداد الصراع ، لان اليمنيين هبوا للدفاع عن انفسهم واموالهم واعراضهم .

ـــ نفى تهمة خروجه عن الطاعة ، وابدى استعداده للمسالمة شريطة ان يلتزم الطرف الاخر بها .

ـ اشاد بمصطفى باشا وعدله ، وعرض بازدمر ، لانه منع الرسل من الوصول الى المقام السلطاني لتوضيح حقيقة ما يجري في اليمن .

ومن الجدير بالذكر ان الخلاف اشتد بين ازدمر باشا ومصطفى باشا منذ اللحظة الاولى ، فقد تم تعيينه دون استشارة ازدمر باشا ، بل انه اعطى صلاحيات واسعة تمكنه من تجاوز المطهر ، اذ فوض باتخاذ ما يراه مناسبا لانهاء حرب اليمن ، بما فيها الصلح ، ومن ناحية ثانية فقد صدرت منه مجموعة من الاعمال والافعال جعلت ازدمر باشا يقف منه موقف الحذر ، اذ احاط مصطفى باشا نفسه بهالة عظيمة من الابهة والتبجيل حتى ظن اهل اليمن انه الوالي الجديد ، وقصده من ذلك ان توجه الهدايا والاموال اليه ، كما جرت به العادة عند تعيين الولاة الجدد . كما اشاع لدى وصوله الى تهامة انه قادم لاجراء الصلح مع المطهر بامر السلطان وانه سيجلي القوات العثمانية من اليمن ، ويوجهها الى الحبشة لمحاربة الافرنج ، وطعن في صلاحية ازدمر باشا ونسب اليه حدة الحرب في اليمن ، وانه لولا جهوده (اي مصطفى باشا) لدى السلطنة العثمانية وبخاصة في تبسيط الامور له ، لارسل السلطان اعدادا كثيرة من الجند يعجز قطر اليمن عن القيام بكفايتهم ، ودلل على صدق اقواله باتخاذ خطوات عملية ، القصد منها انهاء القتال ، فأصدر اوامره الى جنود ازدمر باشا ، في محطة المنقب بالتوقف عن القتال (٩٨) ، وارسل للمطهر يدعوه لايفاد اعيان اصحابه لاستلام الفرمان السلطاني ولكن المطهر رفض ذلك ، لانه كان يخشى ان يغدر بهم النشار ، ويحتجزهم كرهائن ، واجاب على رسالة مصطفى باشا ، بانه يستطيع ان يرسلها مع رسول من قبله ، ولكن المطهر سارع بارسال ـ رسولين من قبله ، عندما وصل مصطفى باشا تعز ، واوفد رسولا اليه يحمل الفرمان السلطاني ، وعاود طلبه بارسال اعيان اصحابه ليتأكد من حسن نواياه ، وصدق عزيمته على توقيع الصلح ، وانهاء القتال .

وقد لقى الرسولان حفاوة بالغة من مصطفى باشا ، اذ قابلهما بالاجلال والاكرام ، فأمر بتزيين المدينة ، واطلقت المدفعية ترحيبا بهم وشرح لهم طبيعة مهمته في اليمن ، وبين لهما انه جاء لتوقيع الصلح وانهاء القتال ، حتى يتفرغ لقتال الافرنج ، ولما عادا ارسل معهما مندوبا من قبله ليجتمع بالمطهر تمهيدا للصلح ، الا ان هذه الاتصالات لم ترق لازدمر باشا . فاحتجز الرسل الثلاثة فترة من الزمن لدى مرورهم بمحطته في المنقب ، ومنع اتصال رسول مصطفى باشا بالمطهر (٩٩) .

اثارت هذه الوقائع مخاوف المطهر ، وادرك مدى خلاف القائدين ، ولذا التزم الحذروالتريث في عقد الصلح ، وفي اظهار رغبته في السلام ، وقد تأكد

موقفه عندما رفض ارسال بعض ابنائه للقاء مصطفى باشا عند خروجه من تعز ، قاصدا صنعاء ، معللا ذلك بعدم ثقته بارسال ابنائه قبل تحققه من صدق نوايا وعزيمة مصطفى باشا بالصلح ، وقد استغل ازدمر باشا هذه الواقعة وسارع بمقابلة مصطفى باشا في ذمار ، واقنعه بضرورة محاربة المطهر لانه لايؤمن جانبه ولا يوثق به .

وفي راينا ان مصطفى باشا كان يطمع في توقيع الصلح باي ثمن ليثبت للسلطان العثماني قدرته على انهاء مشاكل اليمن ، بأقل خسائر ، طمعا في المركز والاموال ، ولما خابت اماله اضطر للموافقة على مقاتلة المطهر وذلك بعد ان فشلت كافة المفاوضات والاتصالات لتوقيع الصلح ، حيث ان المطهر اصر على ضرورة الاتفاق التام على قواعد الصلح ، وتسليمه الخلع والسناجق التي ارسلها السلطان له ، وعندئذ انهارت اخر محاولات الصلح ونزلوا الى محطة المنقب المشرفة على ثلا ، واوفدوا رسولا من قبلهم عله ينجح في ترميم العلاقات ، غير انه منع من الوصول الى المطهر ، اذ اوقفه جند المطهر في منطقة متقدمة تسمى الصروم ــ القريبة من ثلا ــ ، بعد ان اعلموه بانه لا يسمح له بالمرور ، الا بعد اخذ موافقة المطهر ، فعاد وابلغ مصطفى باشا ، وازدمر باشا بسوء المعاملة التي لقيها ، فانتقل القائدان الى منكل لتطويق المطهر في ثلا ، وبعد جهود شاقة لم يتمكن القائدان من احتلال اية منطقة باستثناء ثلا . وذلك في المحرم سنة ٩٥٩هـ/ديسمبر ــ يناير ٥١ــ١٥٥٢م وكان المطهر قد ارتقى قلعتها وتحصن فيها ، وقد استمر الحصار على ثلا مدة سبعة اشهر ، وقعت خلالها معارك عنيفة ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة حاسمة ، اذ مال ازدمر باشا الى الصلح ، وتوسط فيه ناصر بن احمد الحمزى ، فعقد الصلح سنة ٩٥٩هـ/٥١ــ١٥٥٢م ، على الشروط التالية (١٠٠) :ــ

ــ ان يسلم المطهر حصون الطويلة ،وبلادها للسلطنة العثمانية .

ــ تكون له السلطة في بقية حصون منطقته .

وبعد توقيع الصلح تقابل ازدمر باشا والمطهر في ثلا ، وتبادلا الهدايا ولو امعنا النظر في الظروف التي احاطت بكل من اطراف الصلح وبنوده وما ترتب عليه لاستطعنا ان نتحقق من ان الظروف الموضوعية التى احاطت بعقد هذا الصلح كانت نتيجة لمواقف حربية ، وليس استجابة طبيعية تحتمها ضرورة التعايش بين هاتين القوتين اذ فرضت هذه الظروف على ازدمر باشا والمطهر توقيع هذا الصلح لان المطهر كان بحاجة الى هذا الصلح ، نظرا لضعف مركزه الحربي ، فقد كان على وشك الانهيار لطول مدة الحصار ، وبالرغم من صموده الذي اظهره امام القوات العثمانية ، ومما زاد في سوء حالته تفرق اسرته عنه

ومعاداتهم له واتصال بعضهم بالعثمانيين لتحريضهم على الانتقام من المطهر مع ان المطهر نجح في تكوين جبهة قوية من اشراف وقفت الى جواره ، الا ان ذلك لم يحسم الامور لصالحه،بل زادت من قدرتـــه القتالية ضد العثمانيين وشجعته على الصمود والثبات (١٠١) .

اما ازدمر باشا فان ظروفه اضطرته لقبول الصلح لهول صعوباته الحربية ممثلة في قدرة اليمنيين على مواصلة القتال ، واستفادتهم من تضاريسهم الطبيعية الوعرة ، اذ اظهروا براعة فائقة في حروبهم الجبلية ، وسرعة انقضاضهم على العدو ، ومفاجآته ، بينما لاقى العثمانيون صعوبات عديدة بسبب هذه التضاريس فقد فشلوا في تركيز الاتهم ومعداتهم ومدافعهم في ثنايا الجبال ، ممـــا اضعف قدرتهم الهجومية ، وبالتالي تعطلت فعالية اسلحتهم ومدفعيتهم ، كما ان قـــوة شخصية المطهر ، وبراعته الحربية والسياسية ، جعلت مهمتهم صعبة ومحفوفة بالمخاطر ، فلم يتمكنوا من احتلال حصون المطهر مع انهم حفروا السراديب تحته وبلغت براعته السياسية قمتها حين جعل اشراف الجوف ، وال المنصور يقاتلون الى جانبه ، كما نجح فيجعل اشراف ال المنصور يشاغلون العثمانيين فـــي ذيبين ، ثم ان انتشار الملل بين جنوده لطول مدة الحصار اولا ، ولاشتداد الخلاف بينه وبين مصطفى باشا للمرة الثانية ، وتصاعد خلافاتهم الى درجة اخـــذت تهددهم بالهزيمة ثانيا ، لان ازدمر باشا يريد مواصلة القتال حتى يتم له القضاء نهائيا على المطهر ، باعتباره خطرا على الوجود العثماني ولا يمكن ان تستقيم الامور الا بالقضاء عليه ، بينما يريد مصطفى باشا الهدوء بأي ثمن ليدعى في استانبول انه حقق اهدافه دون ان يكلف السلطنة اية اعباء حربية (١٠٢) . اما اهمية هذا الصلح فنستطيع ان نحددها بالنقاط التالية : ـــ

- كان الصلح وثيقة هامة نظمت العلاقات بين المطهر والعثمانيين لمدة طويلة اذ ايقن العثمانيون بانهم لن يحققوا مطامعهم في اليمن بأساليب القوة بعد ان بذلوا جهودا شاقة في سبيلها .

- قبل المطهر صراحة الدخول في الطاعة العثمانية ، حيث وافق على ان تكون السكة والخطبة باسم السلطان العثماني ، مع ان السلطة العثمانية اعترفت باستقلاله في منطقته ، وكان هذا الاستقلال لا يتنافى مع السياسة العثمانية في هذه المرحلة ما دام معترفا بالدولة العثمانية .

- تمكن المطهر من الاحتفاظ بممتلكاته الخاصة ، باستثناء الطويلة التي اضطر للتنازل عنها ، لتشبث العثمانيين الشديد بها لاهميتها الاستراتيجيـــة لمقتضيات الامن ، واتخاذها مركزا للهجوم على المطهر ، فيما لو عاود الثورة ضدهم ، ولوقوعها على الحدود الجنوبية (١٠٣) .

ـ اعطى الصلح فرصة لكل من ازدمر باشا والمطهر ، لمعالجة المشاكل الداخلية والتفرغ للمناطق الثائرة ، فقد وجه ازدمر باشا نشاطه الى المنطقة الجنوبية الغربية من صنعاء ففتح بلاد ريمة وعتمة وجهات وصاب، وسماءة بني النوار ، وذلك في سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م (١٠٤) ، كما اهتم بالمحافظة على الامن في المناطق المحيطة بعدن ، حماية لها من ثورات اهلها من ناحية البحر ، فقد حصن مدينة خنفر ، التي اتخذها علي بن سليمان البدوي ، مركزا له ، ونقل اليها حامية عثمانية لتدعيم السيطرة العثمانية في الجنوب بوجه عام .

كذلك واصل زحفه نحو الشمال وفتح مناطق كحلان وحبيش والشوافي ، واستمر مقاتلا لكل الخارجين عن الطاعة العثمانية في الشمال ، ممن لا يدخلون ضمن املاك المطهر ، ولذلك حارب الاشراف ، آل المنصور في الجوف ، واسترجع الطاهر وبلادها ، واخذ صعدة سلما بدون حرب . ومن الجدير بالذكر بهذا الصدد ان الصلح المذكور ، كان خاصا بتنظيم العلاقة بين المطهر وازدمر ولم يشمل كافة البلاد اليمنية ، فكانت حملات ازدمر في الشمال والجنوب بعد الصلح متفقة وشروط الصلح .

اما المطهر فقد اعطاه الصلح الفرصة لتقوية سيطرته في ممتلكاته الخاصة وفي باقي الاقاليم الشمالية . غير ان ما يؤخذ على هذا الصلح الامور التالية :ـ

ـ لم يؤد الصلح الى الاستقرار في اليمن ، اذ لم ينه الصراع بين العثمانيين واليمنيين بصورة نهائية ، وانما كان اقرب الى الهدنة الطويلة الامد منه الى الصلح القائم على قواعد ثابتة ، اذ ما لبثت الحروب ان اشتعلت مرة اخرى ، وكانت اشد من سابقتها في بعض الاحيان ، لانه لم ينظم العلاقات نهائيا ، ولانه وجد في ظروف غير طبيعية ، بل وليد مواقف حربية استوجبت عقد مثل هذا الصلح ، ومن ناحية اخرى فقد كان توقيع الصلح مع المطهر اعترافا من السلطة العثمانية بشرعية ملكه ، وبذا اعترفت السلطة العثمانية بدولتين في اليمن ، دولة المطهر بن شرف الدين، التي تمثل الكيان الزيدي القوي المقاتل للعثمانيين ، ودولة الامام شرف الدين التي تمثل الامامة الزيدية التقليدية ، وقد ادت هذه السياسة الى اشتداد الصراع بين الامام شرف الدين وابنه المطهر ، ومحاولة كل منهم كسب الاشراف لجانبه ، وكان الامام شرف الدين قد انتقل من كوكبان الى ظفير حجة ، بعد ان جاوز الستين من عمره ، وضعف جسمه ، واصبح يرى ان وجوب اختيار امام يخلفه من الضرورات الحتمية في هذه المرحلة . فاتصل بأهل بلده يدعوهم لمبايعة ابنه علي ، دون المطهر ، رغم نجاحه الباهر ضد العثمانيين اذ ما زال يؤمن بعدم صلاحية ابنه المطهر لتولي

الامامة ، ولما رفض اهله في كوكبان مبايعة علي لميلهم للمطهر ، راسل آل المؤيد ، في صعدة ، طالبا اليهم ترشيح من يرونه صالحا لتولي الامامة ،وقد وقع اختيارهم على احمد بن عـــز الدين بن الحسني المؤيد ، واعلنوا امامته في صعدة ، ويبدو ان الامام فضل ان يكون الامام منهم ، لانهم اقوى من الاشراف في الشمال الذين كان لهم دور بارز في التاريخ اليمني (١٠٦) .

انتشرت دعوة الامام الجديد في بلاد الاهنوم ، وبلاد عذرة والسودة فتصدى له الامير ناصر بن احمد الحمزى ، من اشراف الجوف ، وتمكن من احتلال صعدة منه وملاحقته ، الى الحرجة التي هرب اليها ، قبل وصول الامير ناصر ومنهـــا وجه رسله الى ابي عريش ، يطلب النجدات من ازدمر باشا ، ولذا استغل ازدمر باشا الفرصة ، وتقدم بنفسه الىصعدة ، ودخلها بدون حرب بعد ان فر اميرها ناصر بن احمد الحمزى منها ، ولكي يأمن ثورة اهلها ، عين عليها اميرا من قبله ، وابقى فيها حامية عثمانية ، وجعلها مركزا للعثمانيين في الشمال ، ومن ثم عين حليفه احمد بن الحسين واليا على المناطق الجبلية التي تلي صعدة (١٠٧) .

ولكن هذه الاجراءات لم تحل دون ثورة الشماليين ضد ازدمر باشا ، اذ اضطر ازدمر باشا لارسال جيش اخر الى صعدة بعد فترة قصيرة لاستعادتها ، وذلك لاخماد ثورة حليفه ، احمد بن الحسين التي اشتعلت انذاك بسبب خلافه مع والي صعدة العثماني ، فقد اخضع الجيش العثماني صعدة ، بالرغم مـــن استعداد الاخير للمعركة لعلمه المسبق بها ، اذ كان المطهر قد اتصل به سرا ، ونقل اليه تحركات القوات العثمانية اتجاهه .

وفي راينا ان المطهر كان حريصا على استمالة الاشراف اليه لتقوية جانبه ، متجاهلا موقفهم منه ، ولذا رحب بقدوم احمد بن الحسين ، عندما وصل الى طرفه هاربا من الجنود العثمانيين ، واكرمه بأن عينه حاكما لحصن الجاهلي وتمشيا مع سياسة كسب الاشراف ، وضمهم الى جانبه فقد احسن معاملة الحسن بن حمزة القاسمي لدى القائه القبض عليه ، بأن بنى له دارا في شطب وعين له راتبا ، وكان الامام ، قد دعا لنفسه في سنة ٩٦٠هـ/٢ــ١٥٥٣م ، واخذ يدعـــو القبائل لطاعته لكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، غير ان الصدام وقع بينه وبين المطهر عندما اخذ يدعم الحسن بن حمزةالقاسمي ، دعوته في ممتلكات المطهر الخاصة .

وبالاجمال فان نجاح المطهر امام العثمانيين كان محدود الاثـــر وفي مجـــال ضيق ، وكيفما كان الحال ، فقد تمكن ازدمر باشا من ان يفرض سيطرة الدولة العثمانية على مناطق واسعة من اليمن ، وان يوحد غالبية مناطقها تحت امرته ، حتى اعتبره بعض المؤرخين الفتح الاول لليمن (١٠٨) .

واخير فقد عزل ازدمر باشا عن ولاية اليمن سنة ٩٦١هـ/٥١-١٥٥٢م بناء على طلبه وكان قد ارسل مندوبه جقل بن احمد الى السلطان يطلب منه العزل عن اليمن ، بعد ان عرف بمساعي مصطفى باشا لدى الباب العالي لتعيينه مرة اخرى واليا على اليمن ، واتهام ازدمر باشا بانه هو الذي يسعى لاثارة الحرب في اليمن ، وقد لاقت هذه الدعوى قبولا لدى المسؤولين العثمانيين لرغبتهم في حل مشاكلهم اليمنية سلميا . نظرا لضخامة خسائرهم البشرية والمالية ، وعليه فقد مالوا الى ادعاءات مصطفى باشا ، واشاعوا بقدرته على التفاهم مع اهل اليمن ، ولدى موافقة السلطان خرج ازدمر عن طريق سواكن في الحبشة الى مصر دون ان يمر على مكة للحج ، كما جرت عادة الولاة العثمانيين العائدين من اليمن ، لخوفه من محاربة نائبها ، الذي كان يتهم ازدمر باشا بموالاة المطهر ومن ثم عاد الى الباب العالي فقوبل بالترحاب ، ولما مثل بين يدي السلطان قدم له الهدايا والتحف ، وابدى السلطان موافقته حين عرض عليه ازدمر فتح الحبشة، وامده بجيش سار به الى مصر ومنها برا الى سواكن ، ودخلها ، كما ضم اليه مصوع ، وتم تعيينه واياعلى البلاد المفتوحة ومن الجدير بالذكر ان امر تعيينه صدر من السلطان سليمان القانوني مباشرة ، وكان قبل ذلك يتم تعيين والي هذه المناطق من قبل نائب مصر ، وقد استمرت ولايته حتى سنة ٩٦٧هـ/٥٩-١٥٦٠م الى ان توفي في دواره ، ودفن بها(١٠٩) ، ثم نقل جثمانه الى مصوع ، وختاما فان البلاد اليمنية خضعت للسلطنة العثمانية بفضل شجاعة وذكاء ازدمر باشا وسندرس اهمية دوره ونجاحه في احتلال اليمن في بحث قادم.

الهوامش:

(١) Haji Khalifeh: The History of the Maritime Wars of the Turks, London, 1831, P.67.

(٢) سيد سالم : **الفتح العثماني الأول لليمن** . ط . مصر ١٩٦٩ ، ص ١٢٧ .
عبد الكريم رافق : **العرب والعثمانيون** . ط . دمشق ، ١٩٧٤ .

(٣) ابن داعر : **الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية** . ١/١٧٠ ، مخطوطة في جامعة القاهرة ، رقم ٢١ .

(٤) سيد سالم : **الفتح العثماني** . ١٣٠ .

(٥) ابن داعر : **الفتوحات المرادية** . ١/١٨٧ .

(٦) Haji Khalifeh: The History of the Maritime Wars of the Turks, PP.66-67.

(٧) Dames, M. Long Worth: The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century, Journal of the Royal Asiatic Society, Part 1., January, 1921, London, PP.14-16.

(٨) Stripling, G.W.F.: The Ottoman Turks and the Arabs, Urbana, 1942, PP.40-45.

(٩) ابن داعر : **الفتوحات المرادية** . ١/١٨٩ - خ - .

(١٠) ابن إياس : **بدائع الزهور في وقائع الدهور** . ط . القاهرة ، ١٩٦٠ ، ٥/٣٢٠ ، ١٢٨ .

(١١) عبد الكريم رافق : **العرب والعثمانيون** . ٧٣ .
سيد سالم : **الفتح العثماني الأول لليمن** .

Inalick: The Heyday and decline of the Ottoman Empire, the Camb of History, Vol. 1, 330

(١٢) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني . مخطوط مطبوع دونتحقيق ، ٤٢ .

ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٨٨/١ .

(١٣) سيد سالم : الفتح العثماني . ١٣٣-١٣٥ .

(١٤) Haji Khalifeh: History of the Maritime, P.26–28.

(١٥) النهروالي : البرق اليماني . ٤٣ ، مخطوط .

(١٦) Alderson, A.D.: The Structure of the Ottoman Dynasty, London, 1950, PP.60–69.

(١٧) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني . ٥٤ ، مخطوط .

(١٨) Serjeant, R.B.: The Portuguese of the South Arabian Coast, Oxford, 1963. PP.76–79.

(١٩) يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني . تحقيق سعيد عاشور ، ط . مصر ، ١٩٦٨ . ٦٨٤/٢ .

سيد سالم : الفتح العثماني . ١٣٧ .

ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٨٩/١ – خ – .

(٢٠) النهروالي : البرق اليماني . ٧٠ – خ – .

Madaville: The Ottoman Province of Al-Hassa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries (JAOS), 1970, Voo. 1–90, No. 3, July, PP. 486–512.

(٢١) النهروالي : البرق اليماني . ٧١ .

(٢٢) Serjeant, R.B.: The Portuguese of the South Arabian Coast, P.79.

(٢٣) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٨٨/١ .

سيد سالم : الفتح العثماني . ١٤٢ .

(٢٤) Inalick, W.: The Emergence of the Ottomans Camb. Hist. of Islam, 1970, Vol. 1, PP. 263–291.

(٢٥) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٦٨٤/٢ .

عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح . مخطوط رسالة دكتوراه . جامعة عين شمس ، ١٩٧٣ م .

(٢٦) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٢٧) الموزعي : الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان . مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٧٩ ، ٧ ب ،

النهروالي : البرق اليماني ، ٨٠ .

يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٦٨٤/٢ .

(٢٨) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٢٩) يحيى بن الحسين : ابناء أنباء الزمن في أخبار اليمن . مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ١٢٢ أ .

(٣٠) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٨٩/١ .

(٣١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني . ٨٠ .

(٣٢) Serjeant, R.B.: The Portuguese of the South Arabian Coast, PP. 77–79.

(٣٣) ابن داعر : **الفتوحات المرادية** . ١٨٩/١ .

(٣٤) Haji Khalifeh: History of Maritime, PP.71–72.

(٣٥) Ibid, PP.73.

(٣٦) Ross, E.D.: The Portuguese in India and Arabia (J.R.A.S.) Part 1, January, 1922, P.18.

(٣٧) ابن داعر : **الفتوحات المرادية** . ١٨٩/١ .

(٣٨) النهروالي : **البرق اليماني** . ٨٢–٨٤ .

سيد سالم : **الفتح العثماني** . ١٤٧ .

(٣٩) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٤٠) ابن داعر : **الفتوحات المرادية** . ١٨٩/١ .

(٤١) سيد سالم : **الفتح العثماني** . ١٤٨ .

(٤٢) عيسى بن لطف الله : **روح الروح ، فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح** . ٢٩ أ .

(٤٣) Haji Khalifeh: History of the Maritime, P.32–35.

(٤٤) عيسى بن لطف الله : **روح الروح** . ٢٩ أ .

يحيى بن الحسين : **غاية الأماني** . ٦٨٥/٢ .

(٤٥) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٤٦) عيسى بن لطف الله : **روح الروح** . ٢٩ ب .

النهروالي : **البرق اليماني** . ٨٥ .

يحيى بن الحسين : **غاية الأماني** . ٦٨٥/٢ .

(٤٧) يحيى بن الحسين : **أبناء أنباء الزمن** . ١٥٢ .

(٤٨) سيد سالم : **الفتح العثماني** . ٥٠ .

(٤٩) Wittek, P.: The Rise of the Ottoman Empire, London 1938, P.201.

(٥٠) النهروالي : **البرق اليماني** . ١٥٠ .

رافق : **العرب والعثمانيون** . ٧٣ .

(٥١) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٥٢) Alderson, A.D.: The Structure of the Ottoman Dynasty, London, 1950.

(٥٣) سيد سالم : **الفتح العثماني الأول لليمن** . ١٢٣ .

(٥٤) Greasy, E.S.: A History of the Ottoman Turks, PP.202–204.

(٥٥) النهروالي : **البرق اليماني** . ٩٤ .

(٥٦) أحمد بن يوسف بن فيروز : **مطالع النيران** . ٥ ، مخطوط في دار الكتب ، رقم ٤٣٢٢ .

(٥٧) ابن زنبل الرمال : **تاريخ أخذ مصر من الجراكسة** . مخطوط ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 أنظر نسخة أخرى فيها برقم Cod. Arab 413

(٥٨) Serjeant, R.B.: The Portuguese of the South Arabian Coast, PP.98–99.

(٥٩) النهروالي : **البرق اليماني** . ٨٧ .

(٦٠) Alderson, A.D.: The Structure of the Ottoman Dynasty, P.63.

(٦١) النهروالي : **البرق اليماني في الفتح العثماني** . ٩٨ .

(٦٢) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٠ أ .
يحيى بن الحسين : أبناء أنباء الزمن . ٢٢أ – ٢٣ أ .
الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية . مخطوط بدار الكتب ، رقم ٧٣٤ ، تاريخ تيمور ، ٨٢ ب .
(٦٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٠ ب – ٣١ أ .
(٦٤) نفس المرجع السابق ، ٣١ ب .
(٦٥) أحمد بن فيروز : مطالع النيران . ٦ .
(٦٦) المحرقي : الأحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان . ٩ ب .
(٦٧) النهروالي : البرق اليماني . ٩٧ .
(٦٨) عيسى بن لطف الله : روح الروح : ٣١ أ .
(٦٩) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٩٠/١ .
(٧٠) أحمد بن فيروز : مطالع النيران . ٨ .
(٧١) الكبسي : اللطائف السنية . ٨٧ .
(٧٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٦٩٩/٢ .
(٧٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٣ ب .
النهروالي : البرق اليماني . ١٠٠ .
Serjeant, A.B.: The Portuguese of the South Arabian Coast, P.108.
(٧٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٣ أ .
(٧٥) النهروالي : البرق اليماني . ١٠٠ ،
سيد سالم : الفتح العثماني . ١٧٩ .
(٧٦) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٧٧) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٧٣ أ .
(٧٨) نفس المرجع السابق ، ٧٣ ب .
(٧٩) الكبسي : اللطائف السنية . ٨٢ ب .
(٨٠) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٦٩٩/٢ .
(٨١) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣١ أ .
(٨٢) سيد سالم : الفتح العثماني الأول لليمن . ١٧٢ .
(٨٣) Stripling, G.W.F.: The Ottomans Turks and the Arabs, PP.201–203.
(٨٤) أحمد بن فيروز : مطالع النيران . ٩٨ .
عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٥ أ .
(٨٥) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٧٩٩/٢ .
(٨٦) الكبسي : اللطائف السنية . ٨٣ ب – خ – .
(٨٧) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٧٠٠/٢ .
سيد سالم : الفتح العثماني . ١٧٤ .
(٨٨) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

(٨٩) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٦ أ .

(٩٠) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٧٠٤/٢ .

Haji Khalifeh: History of the Maritime, PP.65–67.

(٩١) النهروالي : البرق اليماني . ١٠٤ .

(٩٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٩٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٧ أ .

سيد سالم : الفتح العثماني . ١٨١ .

(٩٤) يحيى بن الحسين : ابناء ابناء الزمن . ١٢٥ .

(٩٥) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٩١/١–١٩٢ .

(٩٦) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني . ١١٦/١١٢ .

(٩٧) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٩ أ .

(٩٨) أحمد بن فيروز : مطالع النيران . ١٠ أ .

(٩٩) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٣٩ ب .

يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٧٠٩/٢ .

(١٠٠) عيسى بن لطف الله : روح الروح : ٣٩ ب .

ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٩٢/١٢ز أ .

يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ٧١٠/٢ .

(١٠١) البطريق : من تاريخ اليمن الحديث . ٧٥ .

(١٠٢) نفس المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(١٠٣) الموزعي : الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان . ١٠ ب .

(١٠٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحات .

(١٠٥) عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٤١أ .

(١٠٦) يحيى بن الحسين : غاية الأماني . ١٨٣/٢ . ابناء ابناء الزمن . ١٢٩ .

(١٠٧) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٩٣/١ .

(١٠٨) النهروالي : البرق اليماني . ١١٨ .

عيسى بن لطف الله : روح الروح . ٤١ أ .

سيد سالم : الفتح العثماني . ١٩٤ .

(١٠٩) ابن داعر : الفتوحات المرادية . ١٩٤/١ .

رافق : العرب والعثمانيون . ٧٢ .

مجلة

الحقوق والشريعة

تصدرها كلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت

مجلة دورية

تعنى بالمجالات القانونية والشرعية

رئيسة التحرير
الدكتورة بدرية العوضي

سكرتير التحرير
الدكتور عادل الطنطبائي

الاشتراكات

داخل الكويت للافراد
٣ دنانير

للمؤسسات الرسمية
وشبه الرسمية والشركات
١٥ دينارًا

في الخارج
١٥ دولارًا امريكيًا - بالبريد الجوي

العنوان

جامعة الكويت - كلية الحقوق والشريعة
ص.ب ٥٤٧٦

يحتوي كل عدد على الموضوعات التالية: -

- ابحاث في القانون والشريعة الاسلامية
- تعليقات على الاحكام القضائية والتشريعات
- مراجعات للكتب الجديدة
- تقارير عن المؤتمرات الدولية

جميع المراسلات توجه باسم
سكرتير التحرير